

سولجنتسين : « وبعدها الطوفان »



« واذ هم وقوف ، يوشكون ان يرفعوا قدما
فيضعوها على اول الدرج الصاعد الى عنان
السماء ، ندهمهم ريح صرصر مماكسة من كلا
الشاطئين فتطوح بهم على بعد عشرة الاف
فرسخ تائهة ، في فضاء مخادع لثيم .. »
(جون ميلتون :
« الفردوس المفقود »)

لهيب الايمان :

للعصر يانه « عصر موت الاله » ، العصر الذي ازاح فيه الانسان (انسان
الثقافات التي تحدث عنها نيتشه) الهته ، وترجع هو مكانها : الها على
الارض ، ونذكر ايضا ما استعرضناه في المقال الاول من تسريف
سولجنتسين للفن ، وتمييزه بين نوعين من الفنانين : الفنان الذي
يخلق عالما روحيا مستقلا ويتقبل المسؤولية عنه كاملة ، والفنان
الذي يعمل كصبي تحت التمرين في « ورشة » الكون ، تحت ادارة
الخالق .

فالصدام صدام بيسن رؤيتين متناقضتين تمام التناقض ،
متضادتين كاشد ما يكون التضاد ، للعالم ودور الانسان فيه ،
وبالتالي لطريقة الحياة المثلى لذلك الانسان . وفي ذلك الوجه منبع
خطورة الصراع واهميته ، لا بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، ومثقفيه
وكتابه فحسب ، بل وبالنسبة للثقافة الغربية او ، بالاحرى ، الثقافة
الصناعية المتقدمة ، ككل ، لانه يطرح - على هذا المستوى - تلك القضية
برمتها ، من جديد . ومتى ؟ في وقت تاهب فيه تلك الثقافة لفزوالفضاء
ودخول القرن الحادي والعشرين ، تاركة وراءها ، بلا رجعة ، اشياء
عديدة من مخلفات الماضي وركام الحاضر التي بدا القد وشيك المجيء
يفقدنا كل صلاحية ، باحثه عن بدائل لتلك المخلفات البائدة . وفي
اعتقادنا ان الثورة على كونفوشيوس في الصين ليست مجرد نوبة من
نوبات الثورة الثقافية في ذلك البلد العجيب ، او مجرد نقلة جانبية
في لعبة السلطة هناك ، كما صورت ، بل هي تعبير عن ادراك واع
مستنير ، سبقت الصين سائر البلدان التي ستبقى لتدخل القسرون
الحادي والعشرين وعصر الفضاء في المجاهرة به : ادراك لان انسان
القد وشيك المجيء الذي سيعمر الارض والفضاء في حاجة الى نسق
فكري ، روحي واخلاقي ، جديد يتواءم ومتطلبات العصر الجديد ، نسق
من قيم تكامل حولها شخصيته ، فتصلب عوده وتشاد ازره في مواجهة
الكون الذي سيفزوه ويتسيده ، وادراك لكون القديم الراهن من
انسقة القيم (كالكونفوشيوسية) لم يعد فيه غناء ، ولم يعد قادرا
على الوفاء بمتطلبات العصر الجديد .

ولهذا كان تساؤلنا : ما الاكلوية ، وما الصديق ، في هسدا
المدار ؟ لكننا لسنا في معرض تحكيم بين سولجنتسين والنظام الذي
يناطحه لثيبين من منهما الخطيء ، ومن الصيب . فذلك شيء سيتكفل
به تاريخ الفكر عندما يتدبر احداث هذه الحقبة ووقائعها ، على ضوء
ما سوف يأتي بعدها وما سياترب عليها . ولقد اكتفينا ، فيما
سبق ، وفيما يخص الصدام ، بعرض قضية سولجنتسين ككتاب

يخطئه من يتصور ان سولجنتسين غربي ، او ممالء لفكر الغرب ،
او داعية لموقف من مواقف الغربيين ، او مصعب بطريقة حياتهم . فهو
- على العكس - من سلالة الروس القدامى المتعصبين لروسيتهم في
وجه كل ما هو آت من وراء الحدود ، وهو داعية عزلة روسية
محكمة (لا ندري كيف يتصور انها ممكنة) فسي السياسة ،
والعقيدة ، والصكرية ، وطريقة الحياة ، والاقتصاد . وخلافه مع من
يدبرون المجتمع في بلاده ليس انجازا لاحد خارج الحدود الروسية ،
وليس لحساب احد ، مهما طبلت له صحف الغرب - لآربها الخاصة
- وزمرت ، بل هو خلاف مع ما يجده ، ببساطة ، محبطا لاسمال
شعبه - او ما يرى هو انه ينبغي ان تكون عليه امال شعبه - في حياة
الفضل : انسانية ، لا تكنولوجية .. وهو - فوق كل شيء - خلاف
مع ما يدعوه « بالاكلوية » .

ولكن ما الاكلوية ، في هذا المدار ، وما الصديق ؟ ان لينين - هو
الاخر ، وبايمان لا يقل حرارة عن ايمان سولجنتسين - يقول « ان
تعالميم ماركس تتصف بكسل ما تتصف به من قوة لا تغلب لانها
صادقة .. » وما عداها كذب .

والحقيقة ان صراوة الصدام بين سولجنتسين والنظام السوفياتي
راجعة - من وجه بعينه - الى ان ذلك صدام بين موقفين ايمانيين « ،
بالمعنى الديني للكلمة . وذلك ، فيما تنبؤ عنه احداث التاريخ
وغيره ، افطع انواع الصدام . ففي مواجهة المادية الجدلية ، التي
لم تعد واقفة على ارض نظرية او تأملية ، بل على ارض الواقع
الراسخ ، ولم تعد مستندة بظورها الى « قداسة » فكر ماركس
ولينين فحسب ، بل والى جدار صلد من التحقق والانجاز وضروب
النجاح الحية الملموسة التي لا تجحد ، يقف سولجنتسين ، على ارض
مجموعة من القيم « المثالية » ، شامرا سيف الايمان المسيحي العتيق ،
مستندا بظهوره . الى اي شيء ؟ الى انكار لجذوى كل ما حققته
الماركسية من نجاحات ، ورفض لطريقة الحياة التي اوجدتها تلك
الماركسية .

ولثلا نخطئه فهم ابعاد ذلك الصدام فنتصوره (بمقالية لها ولع
خاص بمثل هذه الارتعاشات) صراعا بين رجل مؤمن ، يدعو الى
الايمان ، واناس كفرة ، يدعون الى الالحاد والعباذ بالله .. لثلا
نخطئه الفهم ، على مثل تلك الدرب المعتادة ، نذكر تشخيص نيتشه

مضطهد ، محاولين ان نستجلي جوانب تلك القضية وملابساتها وابعادها . وفيما يخص اضطهاده ، ينبغي ان نذكر انه ليس في محاربة الفكر جديد . فمحاكم التفتيش باقية ، على الجانبين ، طالما نظمت الصور بلهيب الايمان وتجزرت العقول والبصائر وراء الرضى عن النفس والذميمة المريحة التي تقنع هذه الفئة او تلك بانها على حق وغيرها على باطل ، وبانها تتكلم بالصدق ويتكلم غيرها بالاكاذيب . وحتى المجتمع الانجليزي الذي يقبض نفسه على ليبراليتهم وتقاليده الديمقراطية العريقة حارب كاتباً لا كبير ضر فيه كلورنس ، لمجرد ان الكاتب خالفه الرأي وخرج على مواضعه ، فطرده ومنع كتبه حتى الستينيات من هذا القرن . حقيقة ان المجتمع الانجليزي لم يطرد لورنس كما طرد سولجنستين من الاتحاد السوفياتي ، لكنه جعل حياة الكاتب في بلده جحيماً لا يطاق ، وارغمه على التردد في انحاء العمورة ، كما ارغم الكثيرين من قبله ، الى ان مات . ومجتمع كالجمهورية الايرلندي ، لا هو ماركسي ولا هو فاشي ، بل هو مجتمع منقسم في الهوس الديني الى قمة الرأس والى حد المذابح ، سود عيش كاتب عظيم كجيمس جويس ، واضطره الى العيش منفياً ، وطرده بكراهيته حتى مات . ومجتمع كالجمهورية الاميركي عالي الصوت ، الذي لا يكف عن الطنطنة بديموقراطيته وانفتاحه ، طارد كاتباً عظيماً كهزري ميللر ومنع كتبه حتى اواخر الستينيات . ولانقول انه ما دامت تلك - فيما يبدو - هي القاعدة ، فلنسلم بمشروعيتها ولنسلم بحق الجميع في مطاردة الكتاب واضطهادهم . (فذلك حق لا يملكه مجتمع ، مهما كانت اعداده . بل هو غباء وقصر نظر . لانه من الذي ينتصر في النهاية ؟ برغم كل جبروت وقهر ينتصر الكاتب وتبقى اعماله ، بينما تندثر النظم وتزول ، وتتغير المجتمعات . ويكون للكاتب - في معظم الامر - قد اسهم بكتاباته في اندثار تلك وتغير هذه . وكل ما يعود على النظم والمجتمعات من مطاردة الفكر واضطهاده انها تحرم نفسها من الاصفاء لفكر قد يكون سديداً ، وقد يقيها من التردى في مهاو خطيرة ، وفي الوقت ذاته تحكم على نفسها بان تظل عرضة لادانة التاريخ لها متى تبين ان الكاتب كان على حق وانها ركبت متن الشطط في مطاردة فكره) . اما الذي نريد قوله فهو انه من كان من المجتمعات والنظم المعاصرة بلا خطيئة في هذا المجال فليرجم الاتحاد السوفياتي باول حجر . والحادث ان كل تلك المجتمعات تنسى او تناسي كتابها ومفكرها المطاردين المضطهدين وتطير الاتحاد السوفياتي بوابل من الاحجار باعتبارها مجتمعات ديموقراطية لا تحدث فيها مثل هذه الاشياء .

والمشكلة ، كما قلنا ، ان الكاتب يرى الامور من وجهة نظر مناديا بعودة بريطانيا الى حياتها القديمة في رحاب الطبيعة قبل ان والازدهار الذي لا يتوقف للنظام الصناعي ، وما استتبعه ذلك من رخاء وسطوة للطبقات التي تدير المجتمع ، اختلف حول ذلك النظام (المعادي للطبيعة ونمو الذات الفردية على السواء) ، ووجه كل عبقرته الخلافة الى مهاجمته هجوماً لا مهادنة فيه ، والزراية بدعائه والمدافعين عنه ، مناديا بعودة بريطانيا الى حياتها القديمة في رحاب الطبيعة قبل ان يندسها ويلوثها ذلك النظام الصناعي . والادهي من ذلك والامر ان لورنس وقع ، بحسب الفنان وبصيرته ، على موطن جوهرى من مواطن الداء في المجتمعات الغربية الحديثة ، وصارح مجتمعه بانه مجتمع سائر الى الهلاك انسانيًا وحضارياً ، في قبضة مكتسبات التقدم ووثن النجاح من جانب ، ونتيجة لاقتناره من جانب آخر - بعد انتهاء دور المسيحية تاريخياً وحضارياً وانسانياً - الى ديانة حية جديدة (تصلح لهذا الذي كان ينادي به من عودة الى الطبيعة) يتماسك حول نواتها الصلبة كيانه كمجتمع بشري كما تتماسك شخصيات افراده ككائنات انسانية . (ولو ان لورنس تطرف فذهب الى ابعد مما ذهب اليه الرومانسيون من قبله ، فنادى بالعودة الى الديانات البدائية

القديمة بطوقسها وشعائرها الوحشية بعض الشيء ، ومعرفتها « النابعة من الدم » كبدل للمعرفة العقلانية او حتى « معرفة القلب » التي حاول الرومانسيون قبله ان يتردوا بها على النسق العقلائي / المنطقي الذي اقام عليه النظام الصناعي دعائمه .) وبدا دخل الكاتب في صدام مواجهة مع « المؤسسة » ، وبذلت المؤسسة كل ما وسعها من جهد لمحقة والقضاء عليه . وقد فعل نفس الشيء جويس ، وفعله ميللر ، مثلما فعله كل كاتب متمرد مناوئ عبر تاريخ الفكر ، كل من زاويته الخاصة ، وبطريقته الخاصة .

وفي مقابل ذلك يرى من يدبرون المجتمع ، الذين حدثنا عنهم خروشتشوف وقال انهم في هذا المجال (لا يكونون تقدميين بالرة) ، ان الكاتب يقحم نفسه في مسائل لا شأن له بها ، ويهرف حولها بما لا يعرف ، وان الامور يجب ان تسير وفقاً لما يرونهم ، وبذا يتخذون تجاهه الكاتب (كما حدثنا خروشتشوف ايضاً) « اجراءات تكون دائماً مدمرة للغاية » ، فيحاربون كتاباته ، ويمشون فوقه ، وقد يقتلونه ، او يسجنونه ، او يحاولون شراة ، او يجعلون حياته جحيماً حتى يهرب ، او يطردونه ، وذلك اضعف الايمان .

ورب قائل ان سولجنستين كان مستطيماً - رغم ذلك كله - ان يظل في روسيا ويكتب ، فقط لو تحلى بشيء من اللباقة وحسن تدبير الامور . ربما ، ولو ان ذلك ليس سهلاً ، وليس مأموناً في كل الاحوال ، خاصة متى كان الكاتب يقيم وزناً لشرفه وحرية كتابته . فوق ان سولجنستين كان مواجهاً ، في حالة اختياره البقاء ، بان يظل يصيح في خواء ، اذ تقبر مخطوطاته او تؤخذ ، او يصيح خارج الحدود . ولقد اختار الحل الاخير . فكل ما منع له من كتب داخل الاتحاد السوفياتي نشره في الغرب . ورغم ان الكاتب لم يكن له خيار في ذلك الا اذا اختار ان يستسلم ويمشي في الصف كما يقال ، فان السؤال الذي يفرض نفسه - وفي حالة سولجنستين بالذات - هو: لمن ينشر سولجنستين اعماله خارج حدود الاتحاد السوفياتي ؟ انه يعرف طبعاً ان الروس والاوركانيين لن يقرأوا تلك الاعمال بالفرنسية او الانجليزية او الالمانية او مهربة بالروسية بينما هم اصحاب المصلحة الاولى فيها . فمنذا الذي سيحكمي لجمهير الشعب الروسي العربية عن حياة السجناء من مواطنيهم وابنائهم في « اربيسل المعتقلات » ؟ وما جدوى ان يقرأ تلك الاشياء الانجليز ، او الفرنسيون ، او الامريكان ، او الالمان ، وصحفهم تقول هذا كله وتعيد وتزيد فيه منذ اجيال ؟ هل سولجنستين سادر حقاً في حملة شوشرة على الاتحاد السوفياتي وقذف في حقه ؟ هل هو يستعدي الغرب على بلاده ؟ وما جدوى ذلك الاستعداد والغرب يعرف كل ذلك من قديم ولا قيمة فيما ينشره سولجنستين الان - بالنسبة للغرب - الا تزيين ما قالته صحفه واجهزة اعلامه من قديم ؟ هل سيدخل الغربيون الاتحاد السوفياتي او يتدخلون في شؤنه الداخلية ليفرجوا عن المعتقلين ويؤمنوا الحريات الشخصية بفضل ما ينشره سولجنستين ؟ ام ترى الرجل يبحث عن الشهرة والثراء ؟

لا نظن . والذي نفتقده ان الرجل ، مؤمناً اعماق الايمان بما يقول ، محباً كل الحب لوطنه روسيا ، قد قرر ان يشتبك في صراع بقاء مع النظام الحاكم في بلاده ، مستخدماً في ذلك السلاح الوحيد في يده : اعماله الادبية . ولا ننفي مجرد عملية الكتابة والابداع ، بل ننفي استخدام نشر تلك الكتب في العالم سلاحاً باتراً وفعالاً في ذلك الصراع الضاري مع النظام . وقد اثبتت الاحداث نجاح الكاتب في تكتيحه هذا .. حتى الان . فقد آمن بالاقل حياته وحياة أسرته ، وبدلاً من ان يصود الى المعتقل او يوضع في مستشفى للمجانين ، طرد ، فكان طرده كسباً له في معركته ، لانه اعتراف من النظام بخطر بقائه داخل الحدود ، ايا كانت الاسباب التي قبلت في تبرير طرده ، وتسليم بان

الكاتب يمكن ان يجعل من نفسه فعلا - كما قال سولجنستين - حكومة منافسة .

ولقد يكون ذلك هو ما رمى اليه سولجنستين من اختياره للمواجهة والصدام بالرأس مع النظام - في المرحلة التي سبقت طرده - وذهابه في ذلك الى اخر المدى ، وكأنه يصعد الصدام عمدا ، متمجلا الوصول الى نقطة الانفجار . والذي يبدو مما يكتبه سولجنستين ويقول انه ليس انتحاريا ، وليس من طلاب الاستشهاد ، بل انه ، وهو فسي المعتقل ، اخذ على نفسه عهدا بان يظل حيا وينجو ليروي القصة كاملة ويقول كل ما ينبغي ان يقال . ولقد قلنا من قبل انه لم يقدم على شيء مما اقدم عليه في مواجهة النظام الا بعد ان حسب حسبته جيدا ، ورتب اموره ، بحيث يضمن - قدر الاستطاعة - ان تنتهي الامور الى ما انتهت اليه . لكن تلك المجازفة - مهما بدت محسوبة - لم تكن مأمونة العواقب ، ولم يكن سولجنستين من الفعلة او الجنون فيما نظن بحيث يقيبه عنه ان اي جديد غير متوقع وغير محسوب قد يجسد فجأة فيقلب كل الحسابات ويجعل العاقبة وخيمة بحق . ومع ذلك لم يتردد لحظة . وهو ما قد يبرر الاعتقاد انه - فوق كل ما سبق - تفق وراء تصرفات الكاتب التي تبدو ، بأي معيار ، ممعنة في الجرأة ، مفرطة في التهور (لانه : بفرض انه بدلا من طرده قتل او اختفى ، ما الذي كان سيسنطيه العالم الخارجي ، في نهاية الامر ، من اجله ، اللهم الا احداث ضجة ما تلبث ان تخفت وتضيع في زحمة الاحداث؟) نقول تفق وراء تصرفات الكاتب ازمة اخلاقية عميقة ، باقية ، ومؤثرة في النفس . فقبوله نشر « يوم في حياة ايفان دنيروفيتش » لادانة عهد ستالين ، من تحت جناح خروشتشوف ، بدا كما لو كان مباركة من جانب الكاتب ، او موافقة اخلاقية ضمنية منه ، بالاقبل ، على القول بان عهد الاخير افضل من عهد سابقه ، بينما منطلق الكاتبب الاخلاق ، ككل ، بل مرور وجوده ككاتب اصلا ، يقوم على مجموعة قيم وافكار ووجهات نظر تضعه موضع الضد من الاثنين معا ومن بعدهما على السواء . فسيرته ، كما يرويها مؤرخوه الذي ينكاثرون بشكل لافت للنظر في الغرب ، واهم منها ، روايته « الدائرة الاولى » ، صريحة في الشهادة بانه ، ان لم يكن يعرف من مبدأ الامر ، فانه لم يظل جاهلا ، لمد طويل ، بحقيقة من اخذوه تحت جناحهم ونشروا له « ايفان دنيروفيتش » ، ابتداء من خروشتشوف ، الى تفارودفسكي ، وانه لم يكن من السذاجة والفلة بحيث يقيبه عنه ماضيهم الستاليني ، او يقيبه عنه ان قادرا كبيرا مما ظل يستمتع به بعد نشر الرواية ، وبالرغم مما اثارته من اعاصير في اروقة السلطة ، من نجاح وشهرة جعلاه يسجل صلاته النالية للرب ، كان على حساب كثرة من الكتاب والمفكرين المنشقين الذين لم يسعدهم الحظ فيقع الاختيار على عمل من اعمالهم يستخدم في الحملة ضد ستالين :

« كم هو سهل عليّ ان اعيش معك ، ايها الرب الاله ! كم هو سهل على ان اؤمن بك .. على هذا المرتفع من الشهرة المبكرة انظر متعجبا الى الطريق التي لم آكن لاستطيع ان افطن الى وجودها لو كنت وحدي .. تلك الطريق العجيبة عبر مخاضات اليأس الى هذا المرتفع الذي بات بوسعي ان اشع من فوقها ، انا ايضا ، انعكاسا لضيائك ، بين البشر . ولسوف تجعلني يا رب قادرا على ان اظلم اعكس ضياءك طالما كانت تلك مشيئتك .. اما ذلك الذي قد لا استطيع ان اتفه فسوف يكون ما تتجه مشيئتك يا رب الى ان تجعله من قسمة اخرين غيري » . (1)

فبينما سولجنستين على مرتفعه ذاك ، مسجعا بحمد الرب ،

(1) David Bargand George Feifer : « Solzhenitsyn », Sphere Books , London , 1973 , p . 231

متعجبا من درب النجاح والشهرة التي اوصلته اليه ليعكس نور الرب من فوقه ، كان من دفعوه الى تلك الدرب - لمآربهم الخاصة - واجلسوه على ذلك المرتفع ، يحتفظون به على مرتفعه رغم ما كان ذلك يسببه لهم من مناعب وصداق ، لان بقاءه على ذلك المرتفع ، في دائرة الضوء ، كان بالنسبة اليهم دليلا مريحا على البعد عن مكان الجريمة بينما هم يتكلمون بالعشرات والمئات من المفكرين والكتاب متمسكين وراء اسطورة « ايفان دنيروفيتش » ، لانه ان كان النظام ، في عهده الجديد الطيب ، بعد ان انقضى عهد ستالين الشرير ، قد بات من سعة الصدر والحرص على سيادة القانون بحيث امكنه ان يتقبل بصدر رحب نقدا كالذي تضمنته رواية سولجنستين الاولى ، فاي نقد مشروع صادق النية ذلك الذي لا يمكن ان يتقبله ؟ وبالتالي فبان اي خلاف في الرأي او نقد يرفض بعد ذلك ويحارب اصحابه « حرصا على القانون والنظام » لا بد ان يكون مغربا او هداما . وهكذا فانه بفضل تعاون سولجنستين - بحسن نية ولجرد الرغبة في اغتنام فرصة اتبخت له ليوصل ما اراد قوله الى الشعب الروسي - تمكن النظام في عهد خروشتشوف ، بالكلية المعهودة المتكررة ، ان يضع على وجهه قناعا مريحا ومفيدا من ادعاء الانسانية والصدق والاعتدال والبعد عن العسف والالتزام بسيادة القانون .

وليس هناك من يمكن ان يتهم سولجنستين بالتواطؤ في شيء كهذا ، او يحمله مسئولية استغلال النظام لرغبته المشروعة في نشر عمله وتوصيله الى الناس . ومع ذلك فبان الكاتب قد تعرض - اذ اتضح كل ذلك امام عينيه - لازمة اخلاقية واحساس بالمسئولية ما من شك في انهما قد فعلا فعلهما في تكييف موقفه الصلابسة والصدام الذي لا مهادنة فيه تجاه النظام جنبا الى جنب مع مجازفته المحسوبة ، التي اشرنا اليها ، والتي استخدم فيها نشر اعماله في الغرب سلاحا فعلا في تحرك تكتيكي ضد النظام بغية الوصول الى ما عقد العزم عليه من اقتحام كل دفاعات السلطة وقهر مقاومة اجهزتها المختلفة له ، والنفاذ الى الشعب الروسي ليقول له ما الى على نفسه ان يقوله لذلك الشعب الذي يحبه ويعيش من اجله ، ومن خلال ذلك محاولة فرض التغيير الذي يراه ضروريا لنجاة ذلك الشعب من المخاطر المترتبة به ، وسعادته ، واتاحة الفرصة له في حياة انسانية كريمة ، سوية ، وفاضلة ، محاولة فرض ذلك التغيير ، على هذا المستوى الهائل (كاتب بمفرده في مواجهة نظام باكملة) بقوة الفكر وحده . فسولجنستين ، الذي اعتبر نفسه حكومة منافسة للحكومة القائمة في الاتحاد السوفياتي قد اختار ان يصعد الصراع ويحرك الاحداث بحيث يتحول الى شبه « حكومة في المنفى » لبلاده ، كمرحلة في خطة « الفوز الفكري » التي يقوم بتنفيذها ضد النظام . وان وجدت ذلك التشبيه من قبيل المبالغة فالق بسمعك الى تصريحات سولجنستين التي تخاطفتها صحف الغرب وطيرتها وكالات الانباء عشية سفره الرئيس الاميركي نيكسون الى موسكو للاجتماع على مستوى القمة هناك بالقادة السوفيت . ففي حديث تليفزيوني طويل (ساعة كاملة) اجرته معه شركة كولومبيا الاميركية واجراه مراسلها « والتسر كرونكايت » (2) ، عبر سولجنستين عن تشككه في اية قيمة قد تكون لزيارة نيكسون للاتحاد السوفياتي بل وفي قيمة سياسة الوفاق باكملها ، وقال : « لم يحدث من قبل ان بلغ تفوق الاتحاد السوفياتي وبلدان حلف وارسو الذروة التي بلغها الان على بلدان حلف الاطلنطي . ولم يحدث من قبل ان احتكم الاتحاد السوفياتي وبلدان أوروبا الشرقية في مثل هذا الكم الهائل من المعدات المتطورة .. كما لم يحدث من قبل ان كان رئيس الولايات المتحدة الاميركية في مثل هذا الموقف الضعيف الذي يجد نيكسون نفسه فيه الان . ان رئيسكم ليس من القوة بحيث يستطيع

(2) ارجع للصحف البريطانية الصادرة صباح 25 يونيو 1974 .

ان يمر على تنفيذ الماهدات الدولية التنفيذ الواجب . فكانه ليس حكومة في المنفى يتحدث الى العالم .

وعندما سئل سولجنتسين عما اذا كان يخشى على حياته الان وهو يعيش في سويسرا ، اجاب : « كلا . ولا تنس اني لو كنت اخشى على سلامتي الشخصية لما كنت قد جرؤت على نشر « ارجيل المعتقلات » وانا ما زلت بالاتحاد السوفياتي : » لقد نشرت الكتاب في الغرب وانا مدرك تماما لما سوف يترتب على نشره بالنسبة الي : اما الموت امام طابور الاعداء ، او الموت في المعتقل . لكنه ما لبث ان وجه شكرا حارا للصحافة الغربية والراي العام الغربي قائلا انهما حققا انتصارا كبيرا ، بالتحالقات مع المنشقين الروس « باخراجه مطرودا من الاتحاد السوفياتي .

الفن المنتقد ، والدين المختص

لا ينقطع حديث سولجنتسين عن الحرية ، والعدل ، والحقيقة ، والجمال ، والخير ، وحق البشر في ان يعيشوا حياتهم متحررين من الخوف والقيح والنشر والظلم .

وفي خطبة جائزة نوبل يقول ، مخاطبا كتاب العالم ومفكره :

« واني مؤمن ، يا اصدقائي ، باننا قادرون على مساعدة العالم في ساعة محنته هذه . ولا ينبغي لنا ان نبحت عن المآذير (للهرب من تلك المسؤولية) مدعين اننا نفتقر الى الاسلحة . ولا ينبغي لنا ان نستسلم لحياء الرضاء والدعة ، بل يجب ان نخوض المعركة » . (٢)

وهذا عظيم . لكن القضية - كما قلنا قبالا - لا تنجزا . فالفنان لا يستطيع - اخلاقيا - ان ينصب نفسه منافحا عن الحق والعدل والخير والطمانية لبعض البشر ويسقط السواد الاعظم (اكثر من ثلثي سكان العالم ، من حسابه ، مجرد ان الوانهم او عقائلهم تختلف من لونه وعقيدته ، وثقافتهم ليست متقدمة ثقافته التكنولوجية المتطورة ، بل وان يتخذ موقفا يجعل دفاعه عن الحق والعدل لذلك البعض على حساب السواد الاعظم الاسود والاسمر والاحمر . فمضير الفنان - كالمصدق تماما - لا ينقسم ولا يتجزأ ولا يخترع لنفسه المسرات والمآذير التي تتيح له ان يلوذ مرتاحا بانحيازات وضروب اقليمية او قومية او محلية من الولاء في مجال القيم . فهو اما مؤمن بان الناس ، كل الناس ، كبشر ، لهم الحق في ان تقوم حياتهم على تلك القيم ، او ليس مؤمنا بان قيمه هذه ليست من حق كل البشر . ولقد قلنا ان دعاوي الهلرية ، التي اخدها المنصريون الجدد فطوروها وحوروها وجعلوها سندا فكريا ودعامة « اخلاقية » لما يرتكب كل يوم تحت سمع سولجنتسين وبصره من جرائم بشعة في حق الشعوب التي يدعو سولجنتسين ، وهو مترعب على مرتفعه الذي بات الان قمة ، مشعا بنور الرب ، متوقفا بلهيب الايمان ، الى « تركها لمصيرها » ، تلك الدعاوي المهلكة كان نبعها الاول المسموم شوفينيا هي الاخرى ، كدعاوي سولجنتسين الخيرة النبيلة سواء بسواء .

ولا ندمي ان الرجل نازي ، او فاشي ، او عنصري ، وان لم يخل من كلبية فريية خطرة تقوم على التعامل مع الواقع بمعيارين من القيم ، ولا تقل خطرا - لذلك - عن النازية والعنصرية المفضوحة ، بل ويمكن ان تنقلب اليهما بسهولة فاتكة . . بمجرد دفعة صغيرة ، من هسدا الجانب او ذاك . لكننا نقول ان رؤية سولجنتسين « المثالية » لبلاده ، وخطبة التغيير التي وضعها (بوصفه حكومة منافسة) للاتحاد السوفياتي ، والعالم معه بطبيعة الحال ، والتي من اجل وضعها موضع التنفيذ دخل في صراعه المدي مع النظام السوفياتي واوصل الامور عامدا الى نقطة الانفجار التي بات بعدها شبه « بحكومة في المنفى » ، رؤية مليئة بالثقوب والثغرات ، وان تلك الثقوب والثغرات

هي بالذات ما الفسى به - كفنان - الى الزائق الخطرة العمية انسابيا واخلاقيا التي انساب اليها وتورط فيها بغير خجل .

والذي يعيننا في هذا المقال (قبل ان ناخذ في دراسة نقدية لاعمال الكاتب الابداعية) ان نناقش سولجنتسين ، من واقع منطلقاته الاخلاقية ذاتها ، في تلك المهادي والثقوب والثغرات ، بعد ان قلنا ما له وما عليه ، واستعرضنا موقفه من السلطة وموقف السلطة في بلاده منه ومن اديه عبر مراحل ثلاث : مرحلة ستالين ، مرحلة خروشتشوف ، ومرحلة ما بعد خروشتشوف التي لم تكتمل حلقاتها بعد ، بل والتي نفتقد انها لم تكتمل تدا ، وان كل ما سبقها كان مجرد تمهيد لبدائها هذه : النظام ، في الداخل ، رغم كل سطوته وقوته ، محاصرا بالفكر المعارض المنشق ، وحكومة سولجنتسين المنافسة في المنفى ، خارجا ، تضرب بكل ما عندها ، ووراء ظهرها راى عام « عالمي » فربى يسعده بالاكل ان يرى النظام السوفياتي في هذا المازق .

يرى سولجنتسين ، كما اسلفنا ، ان عالمنا بات في حالة مؤسسية وخطرة ، ويرى ايضا ان الفن ، وخاصة الادب ، هو القادر على التغلب على سبب جوهرى من الاسباب التي ادت الى تلك الحالة التكبائية : الا وهو ضعف الانسان المتمثل في كونه غير قادر على التعلم الا من خبراته المباشرة ، والتعامي او العمى عن خبرات غيره من البشر . فالفن يعيد خلق خبرات كل البشر ويوصلها الى كل انسان ، حية نابضة ، ويقننه بها حتى ياخذها اليه ويجعلها خبراته هو ايضا ، ويتعلم منها . فالفن - بذلك المعنى هو المجمع العظيم . فهل يعني سولجنتسين بهذا الكلام الجميل الذي يثلج الصدر ان الفن - اذ يقوم بذلك الدور - يكشف لنا عن تلك الحقيقة التي عبر عنها الشاعر ارشيبالد ماكليس في قصيدته المشهورة التي كتبها بمناسبة اطلاق ابولو ٨ :

« ان رؤيتنا للارض كما هي حقيقة

تجعلنا نرى انفسنا كسافرين على ظهر هذه الارض معا

اخوة كلنا على سطح ذلك الجمال التائق

السابع في قلب الصقيع الابدي ؟ »

في تنظيره للفن يقول سولجنتسين ان الفن قادر على تخطي عواقب اللغة ، والعرف ، والتقاليد ، والنظم الاجتماعية ، التي تغفل جميعا فطها في وضع الحواجز بين الامم ، فيخلق روابط حية بين تلك الامم ، ويضي كل امة منها بخبرات غيرها ، تماما كما يفصل الفن على مستوى الافراد . فالفن منقذ للبشر جميعا . فهل يعني سولجنتسين البشر جميعا ؟

وفي ذلك الجزء من تنظيره ، الذي استعرضناه تفضيلا في المقال الاول ، يقول الكاتب ان الفن سينقذ العالم بالجمال . والجمال عنده يساوي الصدق . والصدق يعني الاعتراف بما في العالم من خير وانسجام . وبدا يكون الجمال المنقذ من خلال المعنى هو تمثل فرض الخالق في خليقته ، ويكون دور الفن هو الاقناع به : « فهناك تلك الخاصة في جوهر الجمال ، في موقف الفن ، وهي ان العمل الفني بحق منقح ، اقناعا كاملا لا يدحض . وحتى القلب الجاحد الذي يقاومه ما يلبث ان يستسلم وينصاع له . . » (٤) والفن قادر على ان « يذيب حى صقيع الروح التي تجمدت واطلمت ، ويفتحها للخبرات الروحية السامقة ونحن نتلقى احيانا ، عن طريق الفن - بغير جلاء ولغترات وجيزة - ضروبا من الوحي والانكشاف لا سبيل الى بلوغها بالتفكير العقلاني » . (٥) فالفن الذي يتحدث عنه

(٤) « خطبة نوبل » ص ٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٥ .

(٢) « خطبة نوبل . . » ص ٢٧ .

سولجنتسين قد لا يكون واقفيا اشتراكيا ، وقد لا يكون ملتزما بالماركسية ، لكنه نضالي هو الآخر ، كاشد ما تكون النضالية ، وكل ما في الامر انه نضالي من موقف « لاهوتي » ضد : موقف الروحية الغيبية . والمسألة ، ببساطة ، ان سولجنتسين يحاجي الماركسية ويدحضها بالسيحية . وهو - اذ يفعل ذلك - مدرك انه يتخذ موقفه - كاهنا في مسكر لاهوتي - في مواجهة كهنة آخرين في مسكر لاهوتي مناوئ . وقد حدثنا سولجنتسين قبلا عن الحروب الاوروبية المتعاقبة التي اشعلت نيرانها الخلافات الايدولوجية « بما فيها - للاسف - الخلافات الدينية » (٦) ، وأشار الى كتاب سيرجي بولجاكوف « كابل ماركس كمنظ دنيي » (١٩٠٦) ، قائلا ان ذلك الكتاب يكشف عن الحقيقة الماثلة في ان الاتحاد هو المحور العاطفي ومصدر الالهام الرئيسي للماركسية ، وان بقية المذهب كله قد رفقت حول ذلك الاساس ترفيما ، « فالعداء الضاري للدين هو السممة التي لا تفسير للماركسية » (٧) ، وبعد ذلك يقول : « اما انا ، شخصيا ، فأرى ان المسيحية ، اليوم ، هي القوة الروحية الحية الوحيدة القادرة على ان تأخذ على عاتقها مهمة شفاء روسيا » (٨) ، وهناك مواضع عديدة من اعماله الابداعية الثرية واشماره ناضحة بحميا دينية تميد الى الذهن ورع كتاب كالبيوت وچاك ماريتان . وسولجنتسين حر - بطبيعة الحال - في معتقداته وما يدعو اليه . وما من شك في انه على حق تماما في دعوته الى اطلاق حرية العقيدة في الاتحاد السوفياتي ، « اتا لا اطلب معاملة مميزة خاصة للمسيحية . كل ما اطلبه لها - ببساطة - هو ان تعامل معاملة عادلة والا تضارد وتقمع » (٩) . فذلك مطلب من ابسط الحقوق الانسانية الاولية : ان يترك كل انسان حرا كي يجد لنفسه الخطا والصواب ، بجهسه الخاص ، في تلك المسألة .. ان استطاع .

ولكن ، ما دام ذلك ، فما خطب سولجنتسين ، المثقف العالمي العظيم ، الفنان ، المنافع عن حرية العقيدة ، وهو يطالعا بذلك الوجه الترفضي القبيح الذي لا يدع فارقا بينه وبين اشد البنايين التمهيين بدائية وهو يقول بنبرة سخرية وكراهية غريبة : « دعوا العرب لمصيرهم .. فلديهم الاسلام » (١٠) ؟

والاسوا ان موقفه الترفضي ضيق الافق هذا الذي يمكن ان نجد له ، في الجهل والعقل المجدب المنور ، عذرا لدى غيره ، يبدو مدخولا في حالة سولجنتسين بانحياز سياسي لا يكاد يغفيه الا بصعوبة .

ومع ذلك ، فسولجنتسين انسان مليء بالتناقضات . فرغم ازدرائه للكتابة التي ترمي الى الدفاع عن افكار مسيئة ، او الاقناع بعقائد سياسية ، اجتماعية ، او فلسفية ، والبرهنة على صحتها ، والترويج لها وقوله انه بينما ينبع الفن الحق من نبع واحد هو الصدق ، تبني مثل تلك الكتابة على عرض من الاتساجم الظاهري ، والتماسك ، والانساق ، رغم ما تكون قائمة عليه ، معبرة عنه ، من اكاذيب واخطاء ، فتخدع الناس ، وتستولي على عقولهم ، ولا يكشف امرها الا عندما تواجهها كتابة اخرى (نضالية مثلا) تناقضها ، وتبدو متماسكة ، متسقة ، مقنعة مثلها ، ولا تقل عنها خطلا وكذبا .. رغم ذلك كله ، فما من شك ، كما قلنا في المقال الاول ، في انه رغم ازدرائه « لفن القضية » ليس دون النضالية ، وليس ارفع من ذلك النوع الذي يدينه من الكتابة ، متى اقتضت الحاجة . وكل ما في الامر انه ، على النقيض من النضاليين المتزيمين كتاب فن

(٦) « رسالة الى زعماء الاتحاد السوفياتي » ص ١٧ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

(٨ - ٩) نفس المرجع ، ص ٥٦ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ٢٨ .

القضية الذين الفناهم من ماله حتى الان ، يضح نضاليته والتزامه ضد القضية (الماركسية) في جانب قضية اخرى ، هي المسيحية .

وتلك ، على اية حال ، مشكلة تخصه . لكن الذي يظلم مفتوحا للتساؤل وهو يتحدث عن ازمة الحضارة الغربية فيقول انها ازمة نفسية ، تاريخية ، واخلاقية ، قد تركت بصماتها على تلك الثقافة ككل (١١) ويقول انه من المحتمل جدا ، مع ذلك ، الا (تكون الحضارة الغربية هي التي ستموت) ، لانها حضارة ديناميكية وقادرة على الابتكار بحيث يمكنها ان تمبر سالمة بهذه الازمة الماحقة التي حلت بها ، وتحطم كل ما يكيلها ويخفقها من مفاهيم قديمة خاطئة مما يجعلها ، خلال بضعة سنوات ، قادرة على ان تأخذ في التعمير واعادة البناء (١٢) .. الذي يظل مفتوحا للتساؤل والكتاب يقول ذلك كله هو : هل يفغل سولجنتسين ام يتفائل عن الحقيقة التي تكاد تثقب العين والمائلة في ان فشل المسيحية كمقيدة تتكامل حول نواتها « شخصية » الحضارة الغربية ، ويقوم على اساسها توازن تلسك الحضارة النفسي والاخلاقي ، ان فشل المسيحية ذاك من الاسباب الجوهرية للازمة الغربية كلها ؟ وهل لا يرى سولجنتسين حقيقة ان الماركسية ذاتها (بل وكل « الديانات » الشمولية الحديثة) عرض من اعراض البحث المحموم لتلك الحضارة - المحزنة بين تقدمها التقني السريع العاد الذي لا يتوقف ، وتخلفها الاخلاقي - عن ديانة جديدة تصلح للعصر ، وتعلم محل المسيحية التي ثبت فشلها في اقامة اود تلك الحضارة اناسيا واخلاقيا ورأب صنعها النكباني ، الذي يحدثنا عنه سولجنتسين بفصاحة ، والذي احده « الفجوة الثقافية » بين التقدم التقني والتخلف الاخلاقي تحت ضغط التغيرات الهائلة التي مرت تلك الحضارة وما زالت تمر بها ؟ وكيف يظن سولجنتسين انه متوصل الى انقاذ روسيا الحبيبة بالمسيحية ، والقرب كله ، بل وعالم الحضارة الصناعية كله من حوله في حالة جيشان ، ورفض ، واصطخاب ، وبحث ، وانكار ؟ وكيف يظن انه متوصل الى حماية روسيا من تأثير التيارات الفكرية المندفخة كالتيارات الكهربائية من قلب تلك الدوامة وهو القائل ان الماركسية ذاتها ليست الا داء اصابت روسيا به اوربا الملحمة ؟ ام تراه يفكر هو ايضا - كمن يعارضهم ويدينهم من الكهنة المنافسين - في ان يقرب حول روسيا ستارا حديديا عقائديا مسيحيا جديدا لحمايتها من تلك التأثيرات الوافدة ، وتدثيرها جيدا بعبادة الدين ؟ وهل يا ترى يقف سولجنتسين موقفا يتأخر فيه كثيرا عن الصينيين انفسهم الذين قلنا انهم فطنوا - ودعك من كل هستيريتهم او غوغائيتهم التي يبدو انه لا مهرب من استخدامها في « سياسة » شعب يقرب تعداده من الف مليون ، فنحن نتحدث عن الفكر الهاديء المدير الذي يحرك الخيوط من وراء واجهة بطوليات الهستيريا والغوغائية - فطنوا الى تلك الحقيقة المعاصرة البسيطة غاية البساطة ، العقدة غاية التعقيد ، الا وهي ان عالم اليوم مقبل على نقلة حضارية باعثة على الدوار لم تعد بعض الديانات والمعتقدات التي عاش ذلك العالم بها وفي ظلها حتى الان صالحة او ممكنة في خصمها ؟ اترى سولجنتسين ، والصينيون يتمردون على كونفوشيوس العظيم ، يوصي روسيا بالعودة الى احضان بولس الرسول ؟ ام ترى المشكلة كلها ماثلة في ان حكومة سولجنتسين المنافسة لم تجد ما تنافس به الكهنوت الماركسي الا اللاهوت المسيحي ، ولم تجد ما تلوح به من امل لانسان اواخر القرن العشرين ، بدلا من الفردوس الارضي المقبل في اخر الزمان الذي تصد الماركسية به مبادها المخلصين ، الا الفردوس السماوي المنتظر ، في العالم الاخر ، بعد انتهاء الزمان ، الذي تصد المسيحية به مؤمنها المخلصين ؟ وعلى المستوى الانساني - الاخلاقي ، اي شيء تكون حقاها ؟ الماركسية

(١١) « رسالة .. » ص ١٢ .

(١٢) « رسالة .. » ص ٢٢ - ٢٤ .

تقول للناس لا تعيشوا الآن ، ريثما يتم عبور المطهر والجحيم ،
ولسوف تعيش ، فيما بعد ، باذن التاريخ ، الاجيال القادمة .
والمسيحية تقول للناس لا تعيشوا هنا ، ريثما يتم عبور هذا العالم
الارضي الموقوت الزائل الرذول ، ولسوف نعيش جميعا ، فيما بعد ،
باذن الله ، في عالم ما بعد الموت ودار البقاء . وهذا وذاك كلام طيب
وجميل بالنسبة للدعاة والمهيئين السياسيين ، او بالنسبة للقسس
والمبشرين . لكنه كلام غريب عجيب من كاتب مستنير يرى ازمة عالم
اليوم المتقدم على حقيقتها ، ويرى ان على الفنان التزاما اخلاقيا
يوجب عليه ان يضع فنه في خدمة مجتمعه ، بل في خدمة البشرية
(المتقدمة) ، في حالة سولجنستين .. اما البشرية المتأخرة فلها
رب اسم الكريم !) ويرى ان التزامه ذلك يتطلب من الفنان :

- ١ - ايقاف الناس (المتقدمين بطبيعة الحال) على ما يراه
متربصا بهم من مخاطر ، وما يجده محذقا بهم من مهالك .
- ٢ - ايقاف الناس ، بصديق ، على اسباب مماناتهم وعبادتهم ،
- ٣ - التورع عن اخفاء حقيقة الحاضر او الماضي ، وعن تجميل
المستقبل وتزويقه كذبا .

(افلا يتطلب ذلك الامتناع عن ترديد الدعوة الى التنازل الان
وهنا على وعد بمستقبل ما جميل ، ورائع ، وغير محدد ، وغير
معروف متى يأتي ؟)

٤ - تفسير التاريخ القديم والمعاصر واستقراءه ، ماضيا وحاضرا ،
لاستظهار المسارات التي يحتمل ان يتخذها مستقبلا ، عملا على
تعزيز رؤية الفنان ، التي يوصله اليها حدسه ، وتوقفه عليها
بصيرته ، بالاستقراء العلمي . (وماذا عن استقراء تاريخ المسيحية
التاريخية ؟)

٥ - اقتراح الحلول لما تكشف عنه بصيرة الفنان من مشكلات
وكوارث مقبلة ويعزز رؤيته لها الاستقراء العلمي . ويستوي ان
يكون اقتراح تلك الحلول في شكل كتابات نظرية نصالية ، او اعمال
ابداعية ، فالهم هو ايقاف الناس على ما يترصص بهم اقتراح الحلول
عليهم ، ولو ان الفن اكثر اقناعا من اية كتابة نظرية .
وفيما يخص الشعب الروسي والشعوب المتقدمة (او شعوب
الحضارات العليا التي اخبرنا سولجنستين انها كانت محط اهتمامه
ومثار انشغاله دائما) تتركز تلك المخاطر بوجه خاص في احتمالات
الحرب مع الصين وما سوف يترتب على حرب كهذه من دمار محتوم
للشعب الروسي ، جنبا الى جنب مع خطر الهلاك الشامل للشعب
الروسي وشعوب الحضارة الغربية معا في زحام وتنن ارض
مختنقة بكثرة من يزحمون سطحها ، مسممة بالتقدم الصناعي المرعب
الذي يلوث بيئتها ويقضي عليها ايكولوجيا . (١٢) .

الخطر الاعظم : الصين .

بواقعية حقيقية لا يرى سولجنستين خطرا على الاتحاد السوفياتي
من جانب الولايات المتحدة او اوروبا الغربية . « لا احد على ظهر
الارض ينهددنا (نحن الروس) غير الصين . ولا احد غيرها سوف
يهاجمنا » . (١٤) فالخطر الاعظم ، عنده ، هو الصين : « .. فالتل
السائر عندنا يقول .. مثلما تنمو الغابة ، تنمو قبضة الفاس .
وفي هذه الحالة : تسعمائة مليون فأس ! » (١٥) والغاية ، بطبيعة
الحال ، هي الشعب الروسي ، اما التسعمائة مليون فأس ، فالشعب
الصيني . وهو يعتقد ان الحرب مع الصين لن تكون حربا نووية
خاطفة (ويبدو اسفا انها لن تكون كذلك) بل حربا تقليدية طويلة ،
مكلفة بشريا وماديا ، وبشعة بشاعة خاصة لانها ستكون حربا

ايديولوجية ، وهي افطع انواع الحروب .

والحل عنده بسيط : تلك حرب لا يجب السماح بوقوعها . يجب
تلافيها بأي ثمن . ولما كان منشأ الصراع ، فيما يراه ، التنافس
بين روسيا والصين على من منهما الماركسي بحق ، والشيوخي
بحق ، وبالتالي من منهما اجدر من الاخر بقيادة شعوب العالم الى
الثورة العالمية ، فما على الاتحاد السوفياتي الا ان يقول للصينيين:
عندكم حق ! انتم الماركسيون بحق ونحن اناس مارقون ومرتبون عن
الماركسية ، بل اننا لا نريدها ، تلك الايديولوجية ، على الاطلاق ،
فتفضلوا وخذوها انتم ، كلها ، لكم . ومهمسا كل مسئولياتها ،
واعباؤها ، وكل نفاقها المبهظة ، واريحونا منها ، « وتفضلوا انتم
فانفقوا على الازهابيين ومقاتلي حرب المصابات في نصف الكرة
الجنوبي ، اذا شئتم ! » (١٦) واسمع لحكومة سولجنستين المنافسة
وهي تقول لزعماء الاتحاد السوفياتي :

« اعطوهم ايديولوجيتهم ! دعوا الزعماء الصينيين يهناون بها
لحظة ! » (١٧) .
وكانه يتحدث عن « شلة » من الصغار يريدون ان ياكلوا الكرة
من « شلة » منافسة !

« .. والقوا حولكم نظرة غير متحيزة : ان اعصار الايديولوجيا
التقدمية الموحل المعكر قد هب علينا ، فاجنأنا ، من الضرب في
اخريات القرن الماضي . وقد عذب ارواحنا ومزقها بما فيه
الكفاية . وها هو الان ينحرف ليفور بعيدا عنا ، الى الشرق ،
من تلقاء نفسه .. فدعوه ينجاب عنا . لا توقفوه ! .. ولسوف يشفى
شعبنا سريرا من ذلك الداء .. ومتى تلاشي ذلك الخلاف والتناحر
الايديولوجي .. قد لا تقع حرب روسية صينية .. وحتى اذا
وقعت ، فانها لن تكون الا في المستقبل البعيد ، وقتها ستكون حربا
دفاعية ، وطنية بحق » . (١٨)

ولم يقول سولجنستين ذلك ؟ لانه - كما هو واضح - لا يعتقد
ان عامل التنافس الصيني (كما يصوره هو) بين روسيا والصين
حول من منهما الماركسية بحق ، وهو السبب الحقيقي الكامن في
جلود الصراع . فالرجل قد يكون متهوسا دينيا وقد يكون مستوعبا
في كراهته الدينية للماركسية ، لكنه ليس من الغفلة والسداجة
بحيث تفوض منه في الرمال المتحركة لتلك الكراهية الاعداد
الحقيقية لما يخوض فيه من قضايا ومشكلات . فهو واع تماما
بخطورة العامل الديموغرافي (السكاني) . ولذلك يقول انه حتى بعد
التخلي عن شرف تمثيل الماركسية ، للصين ، سيتعين على الاتحاد
السوفياتي ان يظل متيقظا لجارته العملاقة : « اننا نخترع لانفسنا
مصالح موهومة في المحيط الاطلسي ، والمحيط الهندي ، بينهما
(مصلحتنا الحقيقية) مائلة في اننا يجب ان نظل مدركين ان حاجتنا
المسكوية الحقيقية طوال نصف القرن المقبل ستكون الدفاع عن
انفسنا ضد الصين .. » (١٩) « فنحن ، في ختام القرن العشرين ،
لا يسعنا ان نتنازل عن ارضنا السيبرية (للصين) ، ذلك شيء
ليس محل مناقشة .. » (٢٠) فسولجنستين ، كما اوضحنا في كل
ما سبق ، ليس غافلا عن المشكلة الرهيبة المتمثلة في زيادة عدد
سكان العالم زيادة حادة مطردة ، مع ثبات الكم المتاح لتلك الاعداد
المتزايدة من البشر من الارض والوارد الطبيعية ، على مستوى
العالم بأسره ، لا بين روسيا والصين فحسب . وها هو يقول

- (١٦) نفس المرجع ، ص ١٧ - ١٨ .
- (١٧) نفس المرجع ، ص ١٨ .
- (١٨) نفس المرجع ، ص ١٩ .
- (١٩) نفس المرجع ، ص ٣٦ .
- (٢٠) نفس المرجع ، ص ١٩ .

- (١٣) « رسالة .. » ص ٨ .
- (١٤) نفس المرجع ، ص ٣٦ .
- (١٥) نفس المرجع ، ص ١٣ .

ان بلاده يجب ان تظل متاهية ، لا يقل عن خمسين عاما ، لغرض حرب دفاعية « وطنية » ضد الصين ، لانها لا تستطيع ان تتنازل عن شبر من اراضيها في الشمال الشرقي ، بل ويجعل مسن اساسيات برنامجه تعمير ذلك الشمال الشرقي لتكون الكثافة السكانية فيه عاتقا في وجه اي اجتياح صيني ويقول ان ذلك سيظل « افضل دفاع ممكن ضد الصين » (٢١) .

والسؤال الذي يطرح نفسه ، ما دام ذلك كذلك ، هو : اي نفع سيعود على روسيا - ما دامت الحرب شبه محتومة بينها وبين الصين - من تسليم الصين علم الثورة العالية ، والتنازل لها عن الايديولوجية الماركسية ؟ ان يكون ذلك سلاحا جديدا في ايدي الزعماء الصينيين ضد روسيا التي ينظرون الي اراضيها ومواردها الطبيعية ويتلمظون بينما شعبهم يتزايد بشكل مخيف ، والارض والوارد تقل ولا تزيد ؟ وان كان اولئك الزعماء قد نجحوا حتى الان في تجييش شعبهم واثارة مشاعره ضد الاتحاد السوفيتي بمجرد اتهام الاتحاد السوفيتي بالروق والانحراف عن الصراط الماركسي المستقيم ، فما بالك عندما تتخلى روسيا عن الماركسية تماما كما يدعوها سولجنيتسين ؟ ما الذي لا يصبح في وسع اولئك الزعماء ان يفعلوه ، اذ ذاك ؟ وهل يعتقد سولجنيتسين حقا ان روسيا ستصبح بمان من « الفؤوس الصينية » التي سيبلغ تعدادها عما قريب الف مليون اذا ما اصبحت مسيحية لا ماركسية ؟ انا نناقش هنا انطلاقا من منطق سولجنيتسين ذاته ، فهو يقول عن الشعب الصيني : (ستجدون انفسكم مواجهين بشعب يناهز تعداده الف مليون من البشر ، لم يذهب مثله شعب الى ميدان القتال في التاريخ كله . ويبدو ان كل ما مضى من وقت منذ عام ١٩٤٩ لم يكف لكي يفقد ذلك الشعب دابه التقليدي ووجه للعمل (وهو يفوقنا قطعا في هاتين الخاصيتين الان) ومدى استماتته ، وصلابته ، وخضوعه للسلطة ، وانصياعه لقادته . وهو شعب يعيش في ظل نظام شمولي لا يقل يقظة عن نظامكم الذي نعيش في ظله . ذلك شعب لن يسلم - اذا دخل الحرب - لا هو ولا جيشه (كما قد يسلم اي شعب اوربي برجاجة عقل اذا ما حوصر وغلب على امره) بل سيقاقل حتى اخر جندي ، واخر مدني ، واخر رصاصة ، فصلا ، واخر رمق .. » (٢٢) .

ان سولجنيتسين لا يريد لشعبه ان يدخل حربا بسبب الماركسية مع ذلك الشعب ، ويقول لزعماء بلاده : اعطوهم ماركسيتهم ، وليذهبوا بها الى الجحيم . طيب . والارض ؟ والوارد الطبيعية ؟ وان كان التنازل للصينيين عن راية الماركسية لن يضمن بحال انتفاء خطر الحرب معهم كما يقول هو ، بل قد يضع سلاحا اقوى في ايدي الزعماء الصينيين لدفع شعبهم الى الحرب مع « الروس المرتدين » ، وهو شعب - على ما يصفه سولجنيتسين - مطواع ، ومنقاد ، ومستعد للموت ، فما حقيقة الحل الذي يراه سولجنيتسين ؟ انه يقول ان الدفع الحثيث نحو الحرب الصينية الروسية راجع الى سببين ، اولهما « الضغط الديناميكي للصين التي يبلغ تعداد سكانها الف مليون نسمة على اراضيها التي لم تستغل بعد في الشمال الشرقي ، لا مجرد الشريط الضيق من الارض المتنازع عليه الان على اساس المعاهدات السابقة .. بل سيبيريا كلها .. ولسوف يزداد ذلك الضغط بازيداض ضغط الانفجار السكاني على ارض الكوكسب كلها .. » (٢٣) ويقول ايضا ، كما اشرنا لتونا ، ان روسيا ليست على استعداد ، تحت اية ظروف ، لتتخلى عن تلك الارض لاحد ،

وان تلك مسألة لا نقاش فيها . وما دام ذلك كذلك ، فما حقيقة الحل الذي يراه سولجنيتسين ؟ تعمير الشمال الشرقي وزيادة الكثافة السكانية به ؟ فوق ان ذلك المشروع . كما يقول زخاروف في رده على سولجنيتسين . من الضخامة بحيث لا يستطيع الاتحاد السوفياتي بمفرده ان يقوم باعبائه (٢٤) فهل تكفي تلك الكثافة السكانية - مهما عظمت - لصمد الف مليون فاس التعطشة لدماء « المرتدين » وارضيتهم ؟ ام ترى في ذهن سولجنيتسين حل اخر ، هو التحالف مع اعداء آخرين للصين ؟ وبصرف النظر عن ان اولئك الاعداء يسعدهم ان يروا الصينيين والروس يذبحون بعضهم بعضا ، ويحاولون في سياستهم الخارجية ان يضربوا هؤلاء باولئك (يشهد بذلك ، على سبيل المثال ، انه بينما كان نيكسون في موسكو منهمك فسي اقتناع بريجنيف بخفض التسليح وزيادة التعاون التقني والصناعي مع الولايات المتحدة ، كان السناتور الديمقراطي هنري جاكسون ، الذي يغلب ان يرشح في انتخابات الرئاسة الاميركية القادمة قد ذهب الى الصين ، لتوثيق عرى « التفاهم » مع ماو) ، نقول بصرف النظر عن ذلك ، ماذا عن الشعب الصيني ذاته في كل هذا ، وهو شعب يقسم الف مليون من البشر ؟ ام ترى ذلك الشعب من تلك الشعوب التي لا يحسب لها او لبقائها حساب ، في قاموس سولجنيتسين ، كالعرب ، والاسويين ، وشعوب اميركا اللاتينية « التي لا يهدد بالاستيلاء على بلادها احد » ، والافريقيين ؟

ولنصغ الى ما يقوله خبراء القرب الاستراتيجيون انفسهم ، على اية حال :

« ان اي قرار بضرب الصين ، اما بهجوم نووي « جراحي » ما يهدف الى تدمير قدرتها النووية ، او بهجوم بري جوي اما فسي الشمال ، او الشمال الشرقي ، قرار لن يتخذه الا المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي ، على ضوء الاهداف السياسية للاتحاد السوفيتي . ولقد كانت تلك الاهداف دائما ضد القيام بعمل عسكري موجه الى الصين . فالصين باقية ، ولسوف تظل دائما حيث هي على الحدود الشرقية للاتحاد السوفيتي ، وسياسيا : لا يوجد مطلب للاتحاد السوفياتي في تدميرها والقضاء عليها ، بل في ان يحكمها اناس اكثر اعتدالا وميلا للسوفيت . ولسوف يقضي اي عمل عسكري ضدها ، خاصة متى تضمن استخدام الاسلحة النووية ، ولزمن طويل ، على كل امكانية لقيام حكومة موالية للسوفيت في بكين ، او حتى اقل عداء لهم . ومن المحتمل ان يكون قيام مثل تلك الحكومة اهم - بالنسبة للاتحاد السوفياتي - من صين محطمة قد تحول مجتمعها وتحولت قدراتها الاستراتيجية الى انقاضي بسبب عمل عسكري من جانب السوفيت .

« كما ان مباداة الاتحاد السوفياتي باستخدام الاسلحة النووية ، خاصة ضد بلد اسوي ، ومن بلدان العالم الثالث (والصين معتبرة كذلك في اعين كثرة من بلدان اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية) سينطوي على خسارة سياسية كبرى للاتحاد السوفيتي . وعلى الزعماء السوفيت ان ياخذوا في حسابهم كذلك ان الانار التي ستترتب على اي هجوم سوفيتي ضد الصين ، في الظروف الراهنة ، او تلك التي ستكون قائمة في المستقبل المرئي ، ستتضمن ما يكاد يكون توقفا تاما لنمو علاقة الاتحاد السوفياتي الثانية بالولايات المتحدة الاميركية (بل ، وفيما يحتمل ، انهيار تلك العلاقة كلية ، لزمن طويل) ، جنبا الى جنب مع موجة من الانفجارات المعادية للسوفيت في العالم الثالث ، ونكسة كبرى لسياسة الاتحاد السوفيتي الاوروبية ، بالإضافة الى تعاطف العطف والتأييد للصين ، والعناصر

(٢١) نفس المرجع ، ص ٣٦ .

(٢٢) « نفس المرجع .. » ، ص ١٤ .

(٢٣) « نفس المرجع » ، ص ١٦ .

الموازية للصين في صفوف « اليسار » اجمع ، على مستوى العالم كله . ذلك غير العمل العسكري المضاد من جانب الصين ، الذي قد يتضمن الحاق اضرار بالغة بالمدن السوفياتية في الشرق الأقصى ، بل وفي روسيا الاوروبية ذاتها ، والاحتمال القائم بان تعمد الولايات المتحدة الاميركية الى امداد الصين بما يعوضها عما تفقده او تستخدمه من اسلحة نووية . وفوق هذا وذاك كله ، فان تورط القوات السوفياتية في تلاحم بري بالقوات الصينية سيوقعها في ورطة صراع طويل غير متكافئ عدديا مع الجيوش الصينية التي تصد بعشرات الملايين ، وهو صراع لا يكاد يكون بوسع الزعماء السوفيت التنبؤ بنتائجه .

« وهكذا فان الادلة المتوفرة توحي بان الاتحاد السوفيتي لا يسهه ان يفعل الا اقل القليل لمنع او اعاقبة نمو قوات الصين الاستراتيجية ، وان افضل ما يمكن له ان يفعله هو ان ينتظر انتهاء عهد ماو على امل ان تكون الانظمة التي ستخلفه اقل تطرفا في عدائها للسوفيت او اقل تجانسا من الديكتاتورية المتمركزة الراهنة . . » (٢٥)

وعلى ضوء ذلك كله ، هل يحل المشكلة قيام الاتحاد السوفيتي بالقاء الماركسية في وجه الصين ، والتحول الى « بلد بورجوازي » على حدودها (وذلك ، على الاقل ، هو ما سيصفه به الصينيون وقتئذ) واعطاء الركيعة الايديولوجية التي تشعل سعار الحرب في صدور الملايين الصينية التي يصفها سولجنتسين ، اعطاء تلك الركيعة لاي متهور او داعية حرب في صفوف القيادة الصينية ، وحتى مع استمرار الاوضاع على ما هي عليه ، فاي نفع سيكون لتعمير الشمال الشرقي وزيادة الكثافة السكانية به ، من وجهة النظر الدفاعية ، في وجه خروشتشوف ، وهو في اوج سلطانه ، وقال له : لا ، فذلك جندي واخر رصاصة واخر رفق كما يقول سولجنتسين ، وفي وجه الهجوم - او الرد - النووي المحتمل من جانب الصين ، كما يقول تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية الذي سقنا الاستشهاد السابق منه ، اي جدوى ستكون - دفاعيا - لبناء المدن وزيادة الكثافة السكانية الا تعريض المزيد من جسد روسيا الحي لاسنان الصينيين ؟

ولنلق بسمنا الى وجهة نظر اخرى ، جادت في رد العالم النووي والثقاف الروسي النشيق ، اندري زخاروف ، الذي وقف في وجه خروشتشوف ، وهو في اوج سلطانه ، وقال له : لا ، فذلك انسان لا يشك احد في مواقفه :

« اعتقادي ان وجهة نظر سولجنتسين (فيما يتعلق بالصراع مع الصين) تصخم المواقف تضخيما مبالغا فيه ، مع تسليمنا بان الموقف ليس بسيطا او سهلا او خلوا من السحب . فمعظم الخبراء في الشؤون الصينية يرون - فيما يبدو لي - ان الصين لن تكون لديها ، لوقت طويل ، القدرة العسكرية التي تمكنها من شن حرب عدوانية ضد الاتحاد السوفيتي ، وانه اذا ما وجد الفامرون الذين يتوصلون الى دفع الصين الى خوض غمار مثل تلك الحرب فانهم سيزجون بها - في الواقع - في مازق حرب انتحارية ، بينما سيكون شن حرب عدوانية ضد الصين ، من جانب الاتحاد السوفيتي ، امرا مقضيا عليه بالفشل . بل ولقد يرى البعض ان الانسحاق وراء تضخيم الخطر الصيني بهذه الصورة ربما يكون من العناصر الداخلة في اللعبة السياسية التي تقوم بها الزعامة السوفيتية حاليا ، وبذا فان المبالغة في تقدير مثل ذلك الخطر (من جانب سولجنتسين او غيره) ليس مما يخدم القضية التي نعمل من اجلها جميعا وهي قضية التحول الى الديمقراطية والتحلل من غلبة العسكرية في بلدنا وهو ما نتحاه روسيا والعالم اجمع حاجة ماسة . ثم .. هناك امر اخر ، وهو ان

(25) Strategic Survey 1973 , an I.I. S.S. Publication
London , 1974 , pp . 68 - 69 ,

النصب الصيني يواجه ، مثلما تواجه شعوب عديدة في عالمنا ، مصيرا فاجعا ينبغي ان يكون مثار انشغال البشرية جمعاء (٢٦) . . والذي يبدو لي ، على اية حال ، ان سولجنتسين يعطي الايديولوجية اهمية اكثر مما لها (٢٧) سواء في نظره الى الصراع مع الصين ، او فيما يتعلق بغير ذلك من القضايا التي يثيرها . والذي لا ينبغي ان يغيب عنا ان الزعماء الصينيين ليسوا باقل براجماتية من الزعماء السوفيت . . »

الخطر الداهم الثاني : استنهار التقدم التقني .

يقول سولجنتسين : « ان الهلاك التقني ليس اقل فظاعة وتهديدا من الهلاك بالحرب . » (٢٧) والهلاك التقني الذي يشير اليه من مخاطر الانسحاق وراء النمو الاقتصادي المترد ، والتقدم العلمي والصناعي الذي لا يقف عند حد ، مع ما يترتب عليه من استنفاد للوارد الطبيعية ، وتلوث للبيئة :

« فالخطر الذي يلي خطر الصين هو المازق المزوج الذي باتت الحضارة الغربية (وهي حضارة اختارت روسيا من زمن طويل شرف الانتماء اليها) تجد نفسها فيه . لكن ذلك الخطر ليس وشيكا كالخطر الصيني ، لانه ما زالت بيننا وبينه سنوات عديدة : عقدان او ثلاثة عقود . ونحن نشترك في التعرض لذلك الخطر مع كافة البلدان المتقدمة التي تعاني الان من ورطة اسوأ مما نحن فيه . . ولقد كان بوسعنا ان نتجنب كل ذلك لو ادركنا فقط تلك الحقيقة البسيطة التي لا تقيب عن فطنة اي فلاح روسي ، وهي انه طالما كانت الارض شيئا محدودا ومتناهي ، فان مساحاتها المتاحة ومواردها تكون محدودة ومتناهية هي ايضا . فالف دودة لا تستطيع ان تظل تقضم نفس التفاحة الى الابد . ولذا فان التقدم اللامتناهي ، بغير حد ، الذي ظل الحالكون من مفكري عصر التنوير يدقونه في الرؤوس دقا باعتباره غاية عظمى ، لا سبيل الى بلوغه على هذه الارض . (ولننظر الى النتيجة :) كل ذلك التقدم بلا توقف قد تبين انه اندفاع جنوني ، هائج ، لا عقل فيه ولا تدبير ، في حارة مسودة . والحضارة المنهومة الى التقدم الذي لا ينقطع قد بدأت الان تختق بتقدمها ، وها هي موشكة على الانهيار . وكل هذه اشياء اذيمت ونوقشت على نطاق واسع في الغرب بواسطة جماعة تيلهار دوشاردان ، ونادي روما . وفيما يلي النتائج التي توصل اليها اولئك السادة بشكل بالغ التركيز :

« يجب على المجتمع المتقدم ان يكف عن النظر الى التقدم باعتباره شيئا مرغوبا فيه . والتقدم اللامتناهي اسطورة عديمة المفزى . والذي يجب النظر اليه الان والاتجاه الى تنفيذه ليس الاقتصاد دائم النمو ، مترد التوسع ، بل الاقتصاد الذي يتوقف النمو فيه عند درجة الصفر ، اي الاقتصاد المستقر . فاستمرار النمو الاقتصادي ليس غير ضروري فحسب ، بل هو مفضى الى الخراب . والهدف الذي يجب ان نضعه نصب اعيننا ليس زيادة مواردنا القومية ، بل مجرد المحافظة عليها .

(٢٨) « البشرية جمعاء » ، كما يقول زخاروف ، بما فيها الكتاب ، بطبيعة الحال ، ومنهم سولجنتسين ، لكن كل اهتمامه بالشعب الصيني اقتمر على قوله : « .. وذلك لا يعني اني ارفع في دمار الصين روحيا . فانا مؤمن بان شعبنا سيشفى من ذلك الداء (الماركسية) سريعا ، والصينيين ايضا ، مع الوقت ، واني لامل الا يفوت الاوان لاتخاذ بلدهم وحمايتهم البشرية . » (« رسالة » ، ص ١٩/١٨) . (٢٩) « يعطي الايديولوجية اهمية اكثر مما لها » . . طبعا . فالايديولوجية هنا مسألة صراع ، « ديني » الصبغة مع الماركسية التي ينظر اليها سولجنتسين باعتبارها لاهوتا منافسا للاهوت المسيحي .

(٢٦) مقال زخاروف في الرد على سولجنتسين ، السابق الاشارة اليه ، بالتايمز اللندنية ١٦/٤/١٩٧٤ .

يجب علينا ان نعرف ، بشكل عاجل ، عن الاستثمار في العملاقة التكنولوجية الحديثة في الصناعة ، والتنمية الريفية والحضرية المكثفة (فمدن اليوم قد تحولت الى اورام سرطانية) . والهدف الرئيسي الذي ينبغي ان نوجه اليه التكنولوجيا الان يجب ان يكون العمل على معو النتائج المؤسفة لما تم تحقيقه من تقدم في ظل التكنولوجيات السابقة .

« والعلماء الذين يقولون كل هذا وصلوا الى نتائجهم هذه بفضل حسابات اجروها باستخدام الحاسبات (العقول) الالكترونية على اساس نظرية تلك الحاسبات بالمعطيات التي تمثل عدة مسارات بديلة ومتباينة للنمو الاقتصادي ، فكانت النتائج كلها قاطعة بان كل تلك المسارات جميعا ميؤوس منها ، بل و اشارت تلك النتائج - بطريقة منذرة بكل شر - الى ان النتيجة المحتومة للاستمرار في التقدم التقني والنمو الاقتصادي ستكون الدمار التكنباني للجنس البشري كله فيما بين سنة ٢٠٢٠ وسنة ٢٠٧٠ ، اذا لم يتخل ذلك الجنس البشري عن حواذ التقدم . وقد اخذت تلك الحسابات في الاعتبار خمسة عوامل رئيسية : عدد السكان ، والوارد الطبيعية ، والانتاج الزراعي ، والصناعة ، وتلوث البيئة .

« وان كان لنا ان نصدق ما انتهت اليه الحاسبات الالكترونية ، فان بعض موارد الارض في طريقها الى ان تستنفد ، وبسرعة : فلن يكون هناك نطف بعد عشرين سنة ، ولا نحاس بعد تسع عشرة سنة ، ولا زئبق بعد اثنتي عشرة سنة . وهناك موارد طبيعية اخرى قد قاربت النفاذ الان . وغير مواد الطاقة ، هناك اشياء هامة كالماء العذب التنظيف القابل للشرب ، قد باتت محدودة للغاية . وحتى اذا ما كشف التنقيب مستقبلا عن احتياطات مخزونة في باطن الارض من كل ما سبق وما عداه من ثروات طبيعية ، وحتى اذا بلغت تلك الاحتياطات المخزونة ضعف او ثلاثة اضعاف ما هو معروف منها حتى الان ، وحتى اذا تمكن الانسان من مضاعفة الانتاج الزراعي ، ونجح في اخضاع الطاقة النووية للامحدودة وتطويعها في خدمته ، فان سكان العالم ، في كل تلك الاحوال ، سيدركهم الهلاك الجماعي خلال العقود الاولى من القرن الحادي والعشرين ، ان لم يكن بسبب تباطؤ الانتاج ثم توفقه نهائيا (نتيجة لنفاذ ما هو متاح من ثروات طبيعية) ، فبسبب فائض الانتاج (تدمير البيئة نتيجة للانفجار في النشاط الصناعي غير المتحكم فيه) .. فهو هلاك لا مهرب منه ايا كان المسار الذي نتخذه .

« وعندما يكون كل شيء » ، كما هي الحال الان ، رهنا بالتقدم ، فانه يكون من المستحيل الشعور على حل امثل مشترك (٢٤) لكل المشكلات الخمس المتفاعلة فيما بينها ، التي اشرنا اليها سابقا ، في وقت واحد معا (وهي مشكلات تزايد السكان ، وتناقض الموارد الطبيعية ، وعدم ملاحقة الانتاج الزراعي لزيادة السكان ، والنشاط الصناعي غير المتحكم فيه ، وتلوث البيئة) وبذلك فانه اذا لم يتخل الجنس البشري عن هوس التقدم الصناعي والنمو الاقتصادي سوف تعزل به تكبات لن يكون اهوئها فساد الفلاف الجوي للارض بحيث يصبح غير صالح لاستمرار الحياة ، وفي وقت ليس بعيد .. في اثناء حياة جيلنا . وان كان لجنسنا البشري ان ينجو من ذلك الصير ، فانه يجب ان يكبح جماح التكنولوجيا ويكيفها لتتواءم مع اقتصاد ثابت يقل بلا نمو لدى عشرين او ثلاثين سنة من الان . وحتى تتاح الفرصة لذلك يجب ان نبدا من الان ، فوراً . « (٢٧)

وبادى ذي بدم (رغم ان سولجنتسين يتنابه دعر ، كلما جاء

(٢٤) « حل امثل مشترك » يجعل من الممكن حل كل مشكلة منها نون ان يكون حلها على حساب الاخرى .

(٢٧) « رسالة .. » ص ص ٢٣/٢٠ .

ذكر للتقدم التقني ، كمن يرى عفرتا) نحن لا نختلف معه حول نقاط عديدة و اساسية في ذلك كله ، وان كان ينبغي ان نذكر ان اساسا كثيرين قبله (كنوماس كارليل مثلا ، في وقت لم يكن شيء مما يتحدث فيه سولجنتسين الان يخطر ببال اشد المشائمين تشاؤما) قالوا مثل ما يقول الان واكثر ، ولم تقع الكوارث التي تنبأوا بها اذا لم يصغ العالم لما يقولون .. لم تقع تلك الكوارث على النحو الذي تنبأوا انها ستقع به ، على الاقل . ورغم ذلك ، فاننا ، كما قلنا ، لا نختلف مع سولجنتسين حول نقاط عديدة ، بل قد تكون من اوائل من نبهوا الازهان ، في بيتتنا الفكرية اللاهية عن كل ذلك ، ومنذ عام ١٩٧٠ (٢٨) لعدد من القضايا الاساسية التي يتحدث فيها الان ، كاخطار التلوث ، والنمو الصناعي ، والتضخم الحضري ، والانفجار السكاني ، كما ناقشها عدد من كبار العلماء والمثقفين في العالم الصناعي والعالم الثالث في مؤتمر عقد باستوكهلم في مطلع ذلك العام وتسلطت على مناقشات من اشتركوا فيه (٢٤) المشكلة التي يثيرها سولجنتسين الان مشكلة بقاء الانسانية او فنائها . ولو رجعنا الى مناقشات ذلك المؤتمر لوجدنا كل اساسيات رسالة سولجنتسين الى زعماء بلاده :

« ولقد تخض المؤتمر عن مواجهة قاسية صارمة في تطيلاتها وفيما كشفت عنه ، اليممة عميقة التشاؤم في توقعاتها . فهو « مؤتمر قمة » على مستوى عالمي ، ضم عددا من اعظم العقول في عالمنا المعاصر ، وتجاوز كل حدود التخصصات ، والمذاهب الاجتماعية او العقائد السياسية ، مؤتمر دولي بحق ، ضم عقولا من اوربا والشرق ، من الاتحاد السوفيتي ، وانجلترا ، وفرنسا ، واميركا ، واسيسا ، وافريقيا . وعلى طول المناقشات وعرضها تسلطت على العقول .. مشكلة بقاء الانسانية او فنائها : كيف يستطيع الانسان ان يعيش العصر العلمي الصناعي ، وكيف يتصرف في مواجهة بعض الانار التي لا مهرب منها للتقدم التكنولوجي ؟

« اتقى العلماء والكتاب والمفكرون الذين اشتركوا في المؤتمر ضوفا مفاجعا على تلك المسائل من خلال تحليلهم لها . ولقد يسدو للمرء ، عندما يتدبر الاخطار الجسيمة المترتبة بالبشرية ، ان الحرب النووية اول تلك الاخطار جميعا .. لكن المشتركين في مؤتمر ستوكهلم اهتموا باخطار اخرى وجدوها اجدر بالدراسة من حيث انها اكثر الحاحا واشد تهديدا للعالم المعاصر .. مشكلات كتلوث الماء والهواء ، والانفجار السكاني ، كلها مفضية على المدى الطويل الى صراع رهيب اشد خطرا من اية حرب نووية ، لانه سيكون صراع اباداة منظمة لاجناس باكملها ، فهي مشكلات يتطلب ايجاد الحلول لها انقلابا كاملا في مواقفنا وتغيرا جذريا في طرق تفكيرنا .. فالمتخصصون الذين اجتمعوا في ستوكهلم قد اجتمعوا بلا استثناء على ان تلوث الهواء ومياه الانهار والبحار والمحيطات خطر ماحق يتهدد البشرية ولا يمكن تداركه الا بعمل عاجل على المستوى الدولي . ذلك التلوث المتزايد يبدو حتى الان كمرض لا علاج له من امراض العصر الصناعي ، بما تسببه مخلفات المصانع وعوادمها من تسمم وتلوث للماء والهواء ، وهي مشكلة يحسها السويديون كمازق حضاري حيث تشكل صناعة الورق التي تعتبر مصدرا من المصادر الاساسية لثروتهم القومية ، خطرا قاتلا .. والمدن هي الاخرى (٢٤) الكتل متقف على ان نموها الرهيب اصبح

(٢٨) « مؤتمر الربيع باستوكهلم » الهلال - مارس ١٩٧٠ ص ص ٩٧/٩١ .

(٢٤) على سبيل المثال لا الحصر ، اشترك في ذلك المؤتمر اساس كالعالم الفرنسي جاك مونو ، وعالم الكيمياء الاميريكي الحاصل على جائزة نوبل مرتين : لينس بولينج ، وعالمة الانثروبولوجيا مارجريرت ميد ، والعالم الالمانى كارل لورنز ، وكتاب وشعراء امثال و.ه. اودن ، وآرثر كويستلر ، وعلماء اجتماع واقتصاد .

(٢٤) وقد ركز عليها سولجنتسين تركيزا خاصا في رسالته .

فانت مستطيع ، اذا رجعت لذلك المقال ، او الى محاضر جلسات ذلك المؤتمر ، ان تجد كل ما تحدث فيه سولجنستين واقام الدنيا واقعدا به منهما زعماء بلاده بالاهمال المشين . لكن هناك شيئا واحدا اختلف فيه سولجنستين عن اولئك الكبار حقا الذين اجتمعوا في ستوكهولم في مطلع سنة ١٩٧٠ : اختلف عنهم في المنظر الذي راي تلك المشكلات من خلاله . فبينما اهتم اولئك الناس بمصير الناس جميعا - باعتبارهم بشرا لهم نفس الحق الاساسي في البقاء - سواء كانوا في نصف الكرة البارد او نصفها الدافئ (والتمييز من عند سولجنستين) بينما اهتم صاحبنا « بشعوب الحضارات العليا » ، وعلى وجه التحديد بالشعوب الروسية والاوكرانية . وبينما ينتاب سولجنستين ذعر ، فيدعو بلاده الى التخلي عن التقدم والتقدمية في وقت معا ، والنكوص الى مجتمع طوباوي منعزل ، يقفل ابوابه على نفسه في وجه العالم اجمع ، محاولا النجاة وبعده الطوفان ، نجد رجلا عالما ببيولوجيا ، لا هو كاتب ولا فنان ، هو الفرنسي جاك مونو ، قائلا في مؤتمر ستوكهولم ذلك ان كل تلك المخاطر التي استعرضها زملاؤه وناقشوها استفحلت ، وارتكبت البشرية كل تلك الاخطاء المهلكة في حق نفسها ، وما زالت ، لانها ظلت تعيش بمجموعة من القيم لم تعد صالحة اطلاقا للعصر ولا قبل لها بمتطلباته ، وانه وان كان العلم ليس مختصا او قادرا على تزويد البشرية بوسائل التقدم وفي الوقت ذاته بقيم واخلاقيات جديدة ، فان العلم يتيح لنا ، بالاول ، ان نتبين مدى القصور المريب الذي باتت تتصف به قيمنا في مواجهة الطالب الملحة للعصر .. وهو ما قد يحفزنا الى ان نبحث لانفسنا عن قيم جديدة نعيش العصر بها ونتعامل معه (٣٠) . وقد صدق مونو عندما قال ان البحث عن تلك القيم ليس من اختصاص العلم ولا هو في حدود قدراته . فذلك ، كما يقول لنا سولجنستين ، مهمة الفن والادب ، خاصة « في هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه ، والذي تبين انه اشد قسوة من كل القرون التي سبقتة » . ولقد تحدث سولجنستين طويلا - كما اسلفنا - عن القيم ، ولسلام القيم . ولكن هل هو مهتم بالبحث عن قيم جديدة لانسان العصر الجديد حقا ؟ بل هل هو مقتنع اساسا ان العصر يتطلب مجموعة قيم جديدة ؟ كل ما قاله لنا لا يشير ولو من بعيد الى وجود مثل ذلك الاقتناع لديه . وبالحقيقة ، ما حاجة انسان العصر الى البحث عن قيم جديدة ، وقيمه التي عاش بها وفي ظلها حتى الان مائلة وجاهزة وفي متناول اليد ، وما عليه الا ان يعود الى المسيحية ؟ طيب ، واولئك الذين ولدوا وهم اصحاب ديانات اخرى ؟ اه . هذه مشكلتهم . ثم اتنا ننسى ان سولجنستين مهتم بالشعب الروسي فقط وبتخليصه من الماركسية والاحاد واعادته الى حظيرة الدين (٣١) . ولقد قلنا ان الرجل ، من بعض الواجه ، يعلو اشبه بكيبلنج روسي . وهو ليس داعية غزو او شاعر امبراطوريات . لكن ذلك لا ينفي الشبه بينه وبين كيبلنج ، وليكن الشمال الشرقي الروسي شبه قارته الهندية . لكن كيبلنج عاش في عصر ، وسولجنستين يعيش في عصر اخر . وكيبلنج مدموم في تاريخ الادب ، فما بالك بكاتب مثل سولجنستين يهاجم زعماء بلاده ، في اواخر هذا القرن الذي تبين انه اشد القرون قسوة لانهم يتمسكون بالماركسية ولا يتقبلون الى « الوطنية » : « وكل رسالتي هذه اليكم

منصبة بالذات على الوطنية ، التي تعني نبد الماركسية . لان الماركسية تامرنا ان نترك الشمال الشرقي مهمل ، غير مستقل ، ونترك نساءنا مهنئات بالعمل اليدوي ، وان نغول بدلا من ذلك الثورة المائية ونعجل بوقوعها . » (٣١) والزمعج انه بينما يتعاضى كاتب مثل سولجنستين ويصم اذنيه ، يقف رجل لا شأن له بالفن الذي سينفذ العالم بالجمال ، ولا بسلام القيم ، كالعالم الاميريكي الكيميائي «اليس بولينج» ، ريبب اعنى المجتمعات الراسمالية في عالم اليوم ، فيقول ان عالم اليوم يتردى في كل ما هو مترد فيه من مهو لانه يدار لحساب قارة محدودة لا تزيد عن مليون . ويدعو الى مصادرة ثروات اولئك الناس ، افرادا كانوا او اسرات ، مع تأمين دخول معقولة لهم تكفل لهم حياة انسانية سوية ، وكف سيطرتهم عن العالم ، بحيث تستطيع البشرية ان تنصرف حقا الى مواجهة المهام العظمى الملقاة على عاتقها . (٣٢) وهكذا فان سولجنستين يقف - من جانب - متأخرا بضع سنوات عن مفكري الغرب ومثقفيه في اثاره لهذه القضايا التي اقام الدنيا بها واقعداها ، وانقل الوطاء على زعماء بلاده بسببها وهي قضايا مثارة ومطروحة للنقاش في العالم الصناعي على نطاق واسع ، من وقت طويل ، بل وقد بدأ الاهتمام بها ينتقل من مرحلة النقاش والبحث عن الحلول ، الى مرحلة ابداع الحلول وتجربتها . كما يقف سولجنستين - من جانب اخر - وهو الاسوأ ، متخلفا بفراسخ عديدة عن اولئك الغربيين ، الذين يكرر الان ما قالوه منذ سنوات ، تخلقا اخلاقيا وانسانيا . ولقد يكون ابعد الناس عن مظنة التجني على سولجنستين ، او اساءة الظن به ، او عدم فهم حقيقة ما يقول ، واقدر الناس - لذلك - على ايضاح ذلك التخلف الاخلاقي الانساني الذي اتسم به موقف سولجنستين في معالجة هذه القضايا وغيرها ، مواطنه المنشق مثله ، العالم النووي اندري زخاروف . فلنسمع لما يقول :

« وفي رسالة سولجنستين اوجه بعينها لموقف الكاتب اقول الحق انها ازعجتني واثارت قلبي وعدم رضائي كلما اعدت قراءتها . من تلك الواجه بشكل خاص وجه يصدم المرء في رسالته الا وهو تركيز اهتمامه بصورة تامة ، ومع اسقاط كل اعتبار اخر من حسابه ، على مشكلات الشعب الروسي ومعاناته . وبطبيعة الحال فان لكل امرء الحق في ان يكتب عما يعرفه معرفة مباشرة ، وان ينشغل بما يحرك مشاعره بطريقة مباشرة ملهوسة تمسه في الصميم . غير ان المرء لا يمكن ان يسقط من حسابه اشياء كنفى البشر وتشريدهم وممارسة الابادة ضد حركات التحرر الوطني ، والقضاء على الثقافات القومية .. والواقع اني - على العكس من سولجنستين - اعتبر ان روح العبودية والخنوع التي ظلت فاشية في روسيا طوال قرون ، بالاضافة الى احتقار الاجانب ، وازدراء الشعوب الاخرى ، والنفور من غيرنا من البشر والديانات الاخرى ، من افطع البلايا التي ابتلينا بها ، ولا اعتبرها (كما يعتبرها سولجنستين) علامة صحة في بنيتنا القومية . » (٣٣)

اما روي ميديفيد فيقول : « ان هذه الوثيقة (رسالة سولجنستين) كانت مصدر خيبة امل عميقة للسواد الاعظم من اولئك الذين يكونون احتراما صادقا لسولجنستين لا ينصف به من موهبة فنية ، وما يتحلى به من شجاعة .. والواقع ان الوثيقة كلها تنطق باتجاه قومي بالغ الخطورة ، وتسم بصيغ افق ظاهر . » (٣٤)

(٣١) « رسالة .. » ص ٤٥ .

(٣٢) « مؤتمر الرعب باستوكهولم » ، المرجع السابق الاشارة

اليه ، ص ٩٧ .

(٣٣) مقال زخاروف السابق الاشارة اليه ، بالتايمز عدد ١٦

ابريل ١٩٧٤ .

(٣٤) « اصدقاء سولجنستين السوفيت يتقلبون عليه » -

الجاردريان عدد ٢٩ ابريل ١٩٧٤ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٩٥/٩٢ .

(٣٠) « مؤتمر الرعب باستوكهولم » - الهلال - مارس ١٩٧٠ ،

ص ٩٥ .

(٣١) وسولجنستين ليس غافلا عن فجوة القيم او فراغ القيم في عالم اليوم ، وهو يقول « .. ولولا حاجة البعض من المعاصرين الى « ديانة » يمتنعونها ، لما كانت الماركسية وجدت كل اولئك المؤمنين بها - رغم افلاسها - في الغرب » (« رسالة » - ص ٤٣) .

المعمقة بالنوريات المتخصصة لا تضمنه ذلك التقرير (٣٦) وبايجاز ، يمكننا تلخيص الاعتراضات العملية التي وجهت الى تقرير نادي روما (وهو المصدر الاول لنشر سولجنتسين) بما يلي :

اولا : ان المعطيات التي غذيت بها الحاسبات الالكترونية ظل تلوث البيئة ممثلا في كل نموذج منها كمتغير واحد . والمشكلة هي : كيف تم قياس ذلك التلوث ، فنحن هنا في مجال حاسبات الكترونية ولسنا في مجال مناظرة بارعة او تفكير نظري . ذلك شيء لم يرد بشأنه في تقرير نادي روما اي تحديد . ولقد تساءل بعض من انتقدوا التقرير كيف تسنى اعطاء قيمة رقمية للتلوث مستقبلا طالما لا توجد لذلك المتغير مثل تلك القيمة الرقمية بشكل مسلم به في الحاضر ؟ مثلا : ما اعلى مسوى للتلوث البيئي على مستوى العالم كله في سنة ١٩٧٠ قياسا الى مستوى عام ١٩٠٠ ؟ وفي نفس الوقت يبدو ان حسابات النادي اسقطت من اعتبارها تماما كافة الاجراءات التي تتخذ حاليا في انحاء مختلفة من العالم لمقاومة التلوث وبرامج الابحاث التي كرسست لاكتشاف وسائل مقاومته والحد منه (٣٧) .

ثانيا : ان الموارد بدورها ادمجت ، في حسابات النادي ، في متغير واحد غير محدد . ويرى من انتقدوا التقدير انه من المحتمل جدا ان تبدو تنبؤات تقرير روما بتناقض الموارد الطبيعية الى حد الاستنفاد سخيفة في ضوء ما سوف يقوم به العالم بغير شك من تنمية موارد الرهانة والتنقيب عن موارد اخرى . فوق انه ليس من النظر العلمي في شيء - كما يقول اولئك النقاد - ان تلقي نظرة معجلة على موارد العالم الرهانة ونقول : « اه هذا كله سيستنفد في سنة ٢٠٠٠ او ٢١٠٠ ! » ولو كان وجد ناد كنادي روما في عام ١٩٠٠ ، واجرى حسابات مماثلة بالنسبة للموارد التي كانت معروفة وقتئذ ، لكانت تلك الحسابات ، فيما يحتمل ، قد اشارت الى انهيار الحضارة قبل ان يعل عام ١٩٧٤ . (٣٨)

اما تقرير البنك الدولي فيقول ان الافتراضات التي غذيت بها المقول الالكترونية كانت مفرطة في تشاؤمها ، ولم يتم التثبت من صحتها علميا ، فوق ان استخدام المعطيات كان متسما بالاهمال والعشوائية .

وايا كان الامر ، وسواء كان سولجنتسين قد تورط - رغم تدريبه العلمي ودراسته للرياضيات - في خطأ الانقياد بسداجة وراء عملية هواة عشوائية كما يحاول اولئك النقاد تصوير تقرير نادي روما ، او كان اولئك النقاد - بتسفيهم للتقرير - جاهدين في التهمية عن موضوعات تدعو مصالح عليا (للحضارات المتقدمة او العليا كما يدعواها سولجنتسين) الى عدم الخوض فيها علنا (وذلك احتمال مرجح بقوة من وجهة نظرنا) خاصة والامر متعلق باشياء متفجرة كاستنفاد الموارد

(36) « Nature » : March 10 , 1972 - August 4, 1972
« National Review » : March 16 , 1973 , September 29, 1972, November 24, 1972

(٣٧) ولو ان اجراءات الحد من التلوث انجبت للبلدان الصناعية تلوئا من نوع جديد ! فالتحكم في المواد الكربونية الصلبة التي تنفثها مداخن المصانع انتهى الى ارتفاع نسبة الاحماض في المطر المتساقط على الغابات والزراعات بنسبة بلغت ١٠٠٪ !

(٣٨) والواقع ان سولجنتسين يناقش هذه القضايا مناقشة دوجماتية . والمشكلة ان العلم اخر ما يحتمل الدوجماتية . فكُل النظريات مطروحة للمناقشة والمراجعة . بل ان العلم عملية متصلة من المراجعة لنظرياته . وفي غمار تلك الدوجماتية يقع سولجنتسين في تناقض طريف : فهو مذموم من استنفاد موارد العالم ، وفي الوقت ذاته معارض لفقر الفضا . مع ان هدفا اساسيا من اهداف غزو الفضاء البحث عن موارد جديدة تعوض ما يستنفد من موارد الارض .

ولقد فلنا من قبل ان سولجنتسين يبدو كما لو كان ، في مجال الادب ، تكرارا ، تاخر عن وقته ثلاثة عقود او يزيد ، لثقفي وكتاب الغرب الذين عاصروا ازمة الحرب الاهلية الاسبانية . وما هو ، في مجال التنوير الاجتماعي ، يبدو تكرار متاخر ايضا ، ومفلوط ، لعلماء الغرب ومثقفيه . ولعل ذلك - الى حد ما - ذنب الجو الفكري المغفل المذموم من التعرض للتيارات الوافدة ومناقشتها ، وهو الجو الذي جعل من هذا الكاتب ما نصفه بانه تكرار متاخر زمنيا واخلاقيا ، والذي ادى - في نفس الوقت - الى طرده من بلاده فأتت لو تعبرت ما يقوله الرجل ، بغير بيروقراطية او ترفض ، لوجدت - اولا - انه حسن النية ، وانه يقصد خيرا بحق ، ولوجدت - ثانيا - انه ليس خطرا ولا مستعميا على النقاش والرد حتى يطرد اكتفاء لشره . ولعل في ذلك ما يبرر القول بان خطره الحقيقي بالنسبة للنظام ليس فيما ينادي به من اراء ، او يدعو اليه من حلول ، لان ذلك كله ممكن الرد عليه بشأنه وافحامه فيه . ان ذلك الخطر - الذي طرد بسببه - كامن في ولعه باجتراح التاريخ .

ولا ادل على صواب هذه النظرة ، فيما نرى ، من مشكلة النمو الاقتصادي التي ركب فيها سولجنتسين متن الشطط بطريقة ما من شك في ان النظام السوفيتي قادر على تحويلها الى مقتل لكل ما ينادي به سولجنتسين .

والمشكلة ان الكاتب هو مدرب تدريبا علميا في الرياضيات والفيزياء لم يتهج نهجا تجريبيا وهو يخوض في قضية كفضية ايقاف النمو الاقتصادي والتقدم التقني ، بل نحا منحى عقائديا ، فابعد الحماس العقائدي عن اي نظر علمي ، ودفعه الى تناول المشكلة تناولا a - priori اي يقوم على مقدمات توصله الى نتائج مرتبة سلفا ، فتورط بذلك - على المستوى الادبي والفكري - فيما ادانه هو عندما حدثنا عن الفرق بين الفن والكتابة التي ترمي الى الدفاع عن افكار مسبقة ، او الاقتناع بمفاهيم سياسية ، اجتماعية ، فلسفية (او اقتصادية) والبرهنة على صحتها ، اعتسافا ، والترويج لها ، كما تورط ، على المستوى العلمي - في الاخذ بافكار معرضة لان تناقض وتدهض باعتبارها مسلمات مفروغ من صحتها ، واقامة نسق فكري باكملة عليها .

فقد وقع سولجنتسين - فيما يبدو من كلامه - على تقرير نشره ، في عام ١٩٧٢ : « نادي روما » (وهو ناد يضم عددا من العلماء ورجال الاقتصاد ، والصناعة ، والمثقفين ، وبعض السياسيين من مختلف انحاء العالم) بعنوان « حدود النمو » . وقد حقق التقرير نجاحا كبيرا في مجال التوزيع ، فبيعت منه عدة مئات من الاف النسخ . ويقر واضع التقرير انهم جمعوا بشكل رياضي « كل المعطيات المعروفة » عن عدد سكان العالم ، وامدادات الطعام ، والتلوث ، والمواد الاولية اللازمة للصناعة ، واستخرجوا من تلك المعطيات عدة نماذج للحاسبات الالكترونية تهدف الى بيان الكيفية التي سيتعرض بها كل متغير من تلك المتغيرات للزيادة والانخفاض خلال السنوات المائة القادمة ، وانتهوا من ذلك كله الى ان الاتجاهات الرهانة مفضية - بلا مهرب - الى انهيار الحضارة قبل حلول سنة ٢١٠٠ ، وان الطريقة الوحيدة لتجنب تلك الكارثة هي فرض قيود بالغة الصرامة على النمو الاقتصادي واطراد التقدم التقني .

ويعد ان نشر نادي روما تقريره بقليل ، قام البنك الدولي بنشر تقييم لتقرير نادي روما (٣٥) كما تتابع ظهور عدد من الدراسات

(35) Report on the Club of Rome, « the limits of Growth » , a study by a special task Force of the World Bank , 1972

ليست مخيبة للامال فحسب ، وليست داعية الى كثير من التحفظات فقط ، بل وكاشفة (وقد يرى المرء انها هادئة) لسولجنستين اكثر مما هي مؤذية للنظام .

ولم ؟ لنسال انفسنا : على اي مفهوم قامت اسطورة سولجنستين (والرجل قد عولجت صورته حتى اصبح اسطورة بحق) سواء كان ذلك برغبته او لم يكن) ، وعلى اي اساس انبنى صرحه ؟ على كونه ، وهو الفنان الذي لا يملك الا قلمه ، قد تصدى لنظام من النظم الحاكمة المعاصرة ، بكل ما تحتكم فيه تلك النظم (كلها وليس احدها) من اجهزة واساليب القهر والمحق وامكانيات القضاء قضاء مبرما على من يخالفها الرأي ، او يعارضها ، او يصيبه خيل فيقف في وجهها (٢٧) ، وان ذلك الفنان - متصديا لذلك النظام - جعل من نفسه منافعا عن الحرية : لا حرية الفرد وحسب ، بل وحرية الامم والشعوب .

ولعله ينبغي لنا ان نتوقف هنا لحظة نستجلي فيها بعض ملامح واعراض مرض كلي معاصر يقول سولجنستين انه « ظاهرة روسية اخرى نبتت جذورها في التربة الفكرية للقرن التاسع عشر اسمائها دستوفسكي : العبودية الفكرية للمفاهيم المتقدمة ، » (٢٨) . ولقد تكون الظاهرة روسية ، كما يقول ، ونابعة من القرن التاسع عشر ، او لا تكون ، لكنها - بكل تأكيد - باتت من اعراض مرض وبيل يعاني منه العالم المتقدم كله ، وهو مرض يزداد شدة وخطورة من يوم لآخر بزيادة ضراوة اجهزة الاعلام والافئاع بالعمق في استغلاله سياسيا ، واجتماعيا ، وتجاريا .

والمرض ، ببساطة ، ضرب من الهلوسة الجماعية تنميه وتعمقه وتزيده شدة مصالح معينة في اوقات معينة . واقرب مثل على ذلك من واقنا ، نحن العرب ، ظاهرة عشق الغرب اليهود وتدلته في حبه . اي شيء هو ذلك الهوس ؟ هو - ببساطة - انك لكي تكون متحضرا وانسانا ومعاصرا ، ونظيفا من المنصرية المذمومة (والمنصرية قد باتت معادة اي موقف من مواقف اليهود او الاختلاف مع دعوى من دعاوهم ، اما اغتيال السلالات الاخرى واحتقارها والتكفل ضدها فنحضر وتقدم) يجب ان يصيبك شيق كلما رن جرس لفظة يهود (او اي شيء له علاقة بهم من قريب او بعيد) في سمعك ، كذلك الجرس الذي كان يستثير به بالفوف افعال كلابه الشرطية المنعكسة . وككل انواع الهوس والسمار والاضطرابات العاطفية والمقلية يخلو ذلك - بطبيعة الحال - من كل منطق وعقل . فاللاعنصرية ، والنحضر ، والتقدسية الفكرية ، والزرعة الانسانية ، تتمثل كلها في الاستجابة الشبقية للمثير المتضمن في لفظة يهود . وهل يفعل كاتب كجوتز جراس غير هذا ؟ وعشرات مثله . وحتى سولجنستين ، عبر عن نفس الموقف بطريقته الريفية الخلو من اللبابة ، عديمة اللفوالنوران ، عندما اخذ على زعماء بلاده تسليحهم للعرب ، وشبه ذلك بتسليحهم سابقا لماوتسي تونج بدلا من ان يسلحوا جاره المسالم الوديع تشانج تشاي تشك . ومن هو جار العرب المسالم الوديع ؟

بنفس الطريقة ، باتت لفظة الحرية هي الاخرى ، في التطبيقات والاستخدامات المتقدمة لهذا المرض في سوق الشعوب كما تساق قطعان الماشية ، لفظة مفتاحية او زنادية (من زناد) كما يقول خبراء ابحاث العمق واساليب الافئاع في الاعلان الحديث ، تطلق في الاذهان المستقبلة لها سلسلة متحركة فيها من التدايمات والاستجابات المجردة من العقل والمنطق ، توضع - كطافية الاخفاء في حكاياتنا الخرافية -

(٢٧) وكل ما هنالك من اختلاف ان المجتمعات الغربية لا تستخدم في محق الكاتب المنشق الاساليب البوليسية او البيروقراطية ، بل تستخدم وسائل تصل الى التشهير والاغتيال المنوي .

(٢٨) « خطبة نوبل » ص ١٩

الطبيعية ومترتبات النشاط الصناعي المكثف) ، نقول سواء كان هذا او ذاك ، فالذي يعيننا موقفه سولجنستين اخلاقيا من كل تلك القضايا التي يخوض فيها . فهو لا يبدو مهتما ادنى اهتمام بما يترتب على اي « عامل » من عوامله الخمسة : الانفجار السكاني ، وتناقص انتاج الطعام ، والارض .. الخ الا بالنسبة للشعب الروسي وحده ، وكان ذلك الشعب الروسي يعيش في فراغ . ولقد وصف زخارف ذلك الموقف من جانب سولجنستين بأنه مشير لاشد الانزعاج والقلق ، ووصفه ميديفيد بضييق الافق ، ونحن نراه كذلك ، ونرى - فوق ذلك - انه كاشف ، لانه ان كان قد بات ممكنا للفن ان يتخذ - كما في حالة سولجنستين - موقف « وبعدنا الطوفان هذا » فان عصرنا يكون - كما وصفه سولجنستين - افسى العصور بحق ، وافظعها ، واشدها كلبية .

وذلك ما لم يفب عن فطنة سولجنستين ، فهو يتوقف لحظة ليقول معتبرا : « وانا - في الحقيقة - ما كنت لاعتبر انه من الاخلاق في شيء ان اوصي باتباع سياسة ترمي الى انقاذنا نحن فحسب ، بينما الصعاب والمشكلات عالية وشاملة بهذا الشكل ، لو لم يكن شعبنا قد قاسى في القرن العشرين اكثر مما قاسى اي شعب اخر في العالم كله . » (٢٧)

وشعوب « المحيطات الدافئة » التي يدعو سولجنستين اليها تركها لمسيرها ؟ الم تتعذب في هذا القرن العشرين ، والقرن التالي سيقته ؟ الا يراها سولجنستين وهي تقتل ؟

ومع ذلك ، فليطمئن سولجنستين على شعوب « الحضارات العليا » . فهو اردها لن تنضب . ولن تموت جوعا او يتوقف تقدمها . لانه ستواصل مسيرتها الظاهرة لتدخل القرن الحادي والعشرين ، وتفرز الفضاء ، على حساب شعوب اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، وبموارد تلك الشعوب ، وربما بجيوش عمال السخرة التي ستحول اليها تلك الشعوب « المجدودة الحظ » من بينها ، التي قد يقرر الداخولون الى القرن الحادي والعشرين الابقاء عليها .. رقيقا لهم .

.. والآن : الحرية .

عندما قامت الضجة الكبرى في صحف الغرب وسائر اجهزة اعلامه حول سولجنستين ونضاله وتحديه للنظام السوفيتي وطرده من بلاده بدا ذلك كله كما لو كان طعنة في الصميم للنظام السوفيتي الحاكم ، بل وللانهاد السوفيتي كله . لكن صحف الغرب واجهزة اعلامه ما لبثت ان نشرت رسالة الكاتب الى زعماء الاتحاد السوفيتي جنبا الى جنب مع احاديث صحفية وتليفزيونية وتصريحات متعاقبة تحمس الكاتب فادلي بها . وقد نشر ذلك كله في الغرب ، وسلطت الاضواء عليه ، وعلق المعلقون على ما جاء به من آراء وافكار ، وحلل المحللون ما انطوى عليه من تلميحات وهممات وظلال معنى ، بتشف ، وفرح ، وانتصار ، باعتبار ان ذلك كله طعنة الاجهاز على الاتحاد السوفيتي الجريح من طعنات سولجنستين البطولية المتلاحقة . وقد اثار ذلك نائرة البعض ، كالوسيقار السوفيتي العظيم ديميتري شوستاكوفيتش الذي ارسل خطابا الى برافدا يهاجم فيه بعض سولجنستين (ولا يستطيع احد ان يتهم شوستاكوفيتش الذي لا يعرف المهادنة ، فيما نظن ، بههانة النظام وتملفه) ، وثار حرج البعض كالمشاعر بفتوشنكو الذي تصدى للدفاع عن سولجنستين في مسدا الامر ، ثم ما لبث ان غير موقفه ، واعتذر بقصيدة ينقل فيها بصنع للجرارات او سيارات النقل لا نعري .

وامتدانا ان اراد سولجنستين في جملتها وتفصيلها - رغم صدق نيته ، وسلامة الاسس الاخلاقية التي يصر على انه يصدر عنها

(٢٧) « رسالة .. » ص ٢٠

على رأس أي قضية ، مهما فسدت وفسحت ، فتجعلها بهجة للناظرين ، اذ تخفي سوداتها ، بل تخفيها اصلا ، ولا ندع في الاذهان التي تساق بها كما تساق القطعان الا الصورة المصنوعة التي دربت تلك القطعان على الاستجابة لها كلما اطلق عليها ذلك المنبه او المثير : لفظه الحرية .

وذلك عين ما حدث ابان الفجة الكبرى التي سبقت وصاحبت طرد سولجنتسين من الاتحاد السوفيتي ، سولجنتسين الشهيد ، المناضل ، نصير الحرية ! وكيف لا يكون وهو في رسالته البطولية الى زعماء بلاده الجبارة يطلب اليهم ، بل يبدو كما لو كان يامرهم باطلاق الحريات الفردية ، وانهاء وصايتهم على بلدان اوربا الشرقية واعطائها حريتها ؟ والمتتبع لقصة الغرب مع بلدان المنسكر الاشتراكي في اوربا الشرقية يعرف اهمية ما يعنيه هذا . فما بالك وسولجنتسين ، قاتل المردة ، كاسيا درومه ، شاهرا رمحه ، يطلب بجرة فلم واحدة اخلاء سبيل الافراد من ابناء الشعب السوفيتي ، المعتقلين منهم ، والمهجرة حرياتهم خارج اسوار المعتقات ، سواء بسواء ، في وقت واحد مع بلدان اوربا الاشتراكية باكملها ؟ هل هناك تكريس لكل ما قالت صحف الغرب واجهزة اعلامه ، وردده ، وتالته به ، مدعية القداسة ، ونصرة القيم الانسانية العليا منذ الحرب الباردة حتى الان ، هل هناك تكريس لذلك اعظم من هذه الدعوة على لسان كاتب روسي عالمي كهذا يحمل جائزة نوبل ؟

وقبل ان نذهب الى ابعاد من هذا نتوقف لحظة - على سبيل الاحتياط - فنستعيد كل ما قلناه في جانب الكاتب وما قلناه دفاعا عن حقه في المعارضة والانشقاق وابداء الرأي دون ان يضطهد ، او يكبح جماحه ، او يرتعب ، او يتردد . فنحن ، بغير ادنى شك ، في جانب حرية الكاتب : حريته كفرد وانسان ، وحرية كتاب . كما اننا ، بغير ادنى شك ، في جانب الحرية ، بكل قلنا ، وكل فكرنا . لكننا في جانب الحرية كقيمة اخلاقية حقيقية مرتبطة ارتباطا عضويا لا فصام له بالواقع الانساني ، ولسنا في جانب الحرية التي تحول الى حيلة من حيل الهواة ولاعبى السيرك في حلبة السفسطة والكلبية . وببساطة نحن في جانب الحرية كقضية لا تجزأ ولا يتلاعب بشغاياها باستخدام معيارين من القيم . ولهذا لا تثير حييننا للحرية بل تثير غشياننا تلك السيول من الحمم المتدفقة من افواه كتاب الغرب دفاعا عن الحرية والقيم الانسانية العليا وموتا في حبه . لان كلبية المعايير الزوجية تجعل من ذلك كله سخريه مريضة مشوهة مقية . وما من شك في ان اولئك الذين يملأون اشداقهم بلطفة الحرية ويلوكونها دفاعا عن حرية القاتل في قتل ضحيته ويصفون القاتل بالتحضر والبطولة وهو يبعد شعبا باكماله احتلت ارضه ، ثم يملأون اشداقهم بالفاظ القيم الانسانية العليا ويلوكونها ادانة لحرية الضحية في الدفاع عن نفسها ضد قاتلها ، لهم كاذبون ومزورون . وسولجنتسين عدو الكذب المستميت دفاعا عن الصدق والحق والحرية ؟ لقد راينا رأي العين وسمعنا باذاننا ادانته « للارهابيين » و « مقاتلي حرب العصابات » . فلننظر الان في حكاية دفاعه عن الحرية ، ولنسال سولجنتسين : هل دعا حقا وصدقا الى اطلاق الحريات ، ودعا - حيا في حرية اوربا الشرقية الى انهاء الوصاية على اوربا الشرقية ؟ ام تراه يدعو الى ذلك بمجرد تخليص الشعب الروسي من « عبء تلك الوصاية » وتخفيف حمولة مركبه حتى لا يفرق في العاصفة التي يراها مقبلة ؟ ولسنا بحاجة الى جواب غير ما كتبه سولجنتسين بقلمه : « لقد ظللنا منشغلين ، طيلة نصف قرن ، بالثورة العالمة ، مهتمين بمد دائرة نفوذنا وتوسيعها لتشمل اوربا الشرقية وبلداننا اخرى في قارات اخرى ، آخذين في تنفيذ برامج اصلاح زراعي تقوم على اساس ايدولوجية ، سادرن في القضاء على الطبقات المالكة للارض ، ومحو الديانة والاخلاقيات المسيحية ، منغمسين في ذلك الاستعراض الحاوي الذي يدعى بسباق الفضاء (1)

(٢٩) . . وليس امامنا الان من سبيل الا ان نتحول عن الاهتمام بالقارات البعيدة ، بل وعن اوربا وجنوب بلادنا ذاته . وكلما عجلنا بذلك كان خيرا لنا واجدى (٤٠) . . وبطبيعة الحال سيستتبع تحول كهذا ، ان اجلا وان عاجلا سحب مظلة الحماية والاشراف التي نبسطها فوق اوربا الشرقية » . (٤١)

ليست الحكاية اذن حكاية منافحة عن حرية اوربا الشرقية ، او حرية غيرها . نخل ما في الامر ان الرجل يريد لبلاده ان تدير ظهرها للجميع ، وتوصد ابوابها دون الجميع ، اوربا الشرقية كأوربا الغربية ، « كائصاف الكرة الاخرى ، وبلدان المحيطات الدافئة » . فالكارثة آتية وليحاول ان ينجو بنفسه من استطاع .

وبصرف النظر عن ان سولجنتسين يبدو كما لو كان مصرا على ان يظل ، في كل موافقه ، لاحقا باذيال الغرب ، متخلفا عنه بسنين ، واحيانا بمقود كاملة : فهو ، في اواخر سنة ١٩٧٣ ، يدعو بلاده الى الاخذ بسياسة عزلة اشبه بتلك التي خرجت منها ولم تعد اليها الولايات المتحدة الاميركية قبل اكثر من ثلث قرن من الزمان ، بصرف النظر عن هذا ، فان الموقف يدعو ، حقيقة ، الى التساؤل والحيرة . لانه ليس موقف اي كان . وليس الامر متعلقا هنا ببورجوازي مدعور صغير شيق الاق ومنتعصب يقال له ان المؤن ستشج في الشارع الصغير الذي جعله عالمه ، فيهرول ليشترى له ولعيله كل ما استطاع شراؤه ، ويسرع ليففل على نفسه واسرته ابواب داره - بل الامر متعلق بفنان كبير ، وكاتب حاصل على جائزة نوبل ، ومناضل لا يشق له غبار ، ومناظر عظيم ، ومقاتل عن الحرية شديد المراس : حرية الافراد ، وحريات الشعوب . . او هذا هو ما يقال ؟ فما الحكاية اذن؟ لنضع سولجنتسين نفسه يفتح ، بغير تعليق :

« . . حتى سلالة المثقفين الروس التي وجهت كل قواها ، لاكثر من قرن ، الى مقاومة الطغيان والحكم المطلق : ما الذي حققته لنفسها ، او لعامة الشعب ، مقابل خسائرها الجسيمة ؟ عكس ما ابتغته تماما ، بطبيعة الحال . افلا ينبغي ان نسلم اذن بان تلك الدرب (درب مقاومة العلم المطلق) كانت دربا زائفة ، او سابقة لاوانها ؟ اولا ينبغي ان نقر بانه من المقدر لروسيا ، في المستقبل الرئي ، فيما يحتمل ، شئنا ام لم نشأ ، اردنا او لم نرد ، ان تحكم حكما مطلقا ؟ اليس من المحتمل ان ذلك هو ما يؤهلها له ما وصلت اليه من نصج حتى الان ؟

« وكل شيء يتوقف على نوع الحكم المطلق (!) فليس الحكم المطلق ذاته هو الذي لا يطاق ، بل الاكاذيب الايدولوجية (الماركسية) التي نرغم على ابتلاعها كل يوم . ليست المشكلة في الحكم المطلق ، بل في التمسك وانعدام الشرعية المتمثل في هيمنة فرد واحد في كل مقاطعة ، وكل اقليم ، وكل مجال ، غالبا ما يكون فلزا جاهلا تنفرد ارادته بالحق في تقرير ما يكون وما لا يكون في كل الاشياء . . فليكن حكما مطلقا اذن لكنه لا يقوم على كراهية طبقية لا نهاية لها ، بل على حب جارك ، وشعبك كله . . » (٤٢)

لندن

(٢٩) « رسالة . . » ص ٢٩

(٤٠) « رسالة » صص ٣١/٣٢

(٤١) « رسالة . . » ص ٣٢

(٤٢) « رسالة . . » صص ٥٢/٥٥